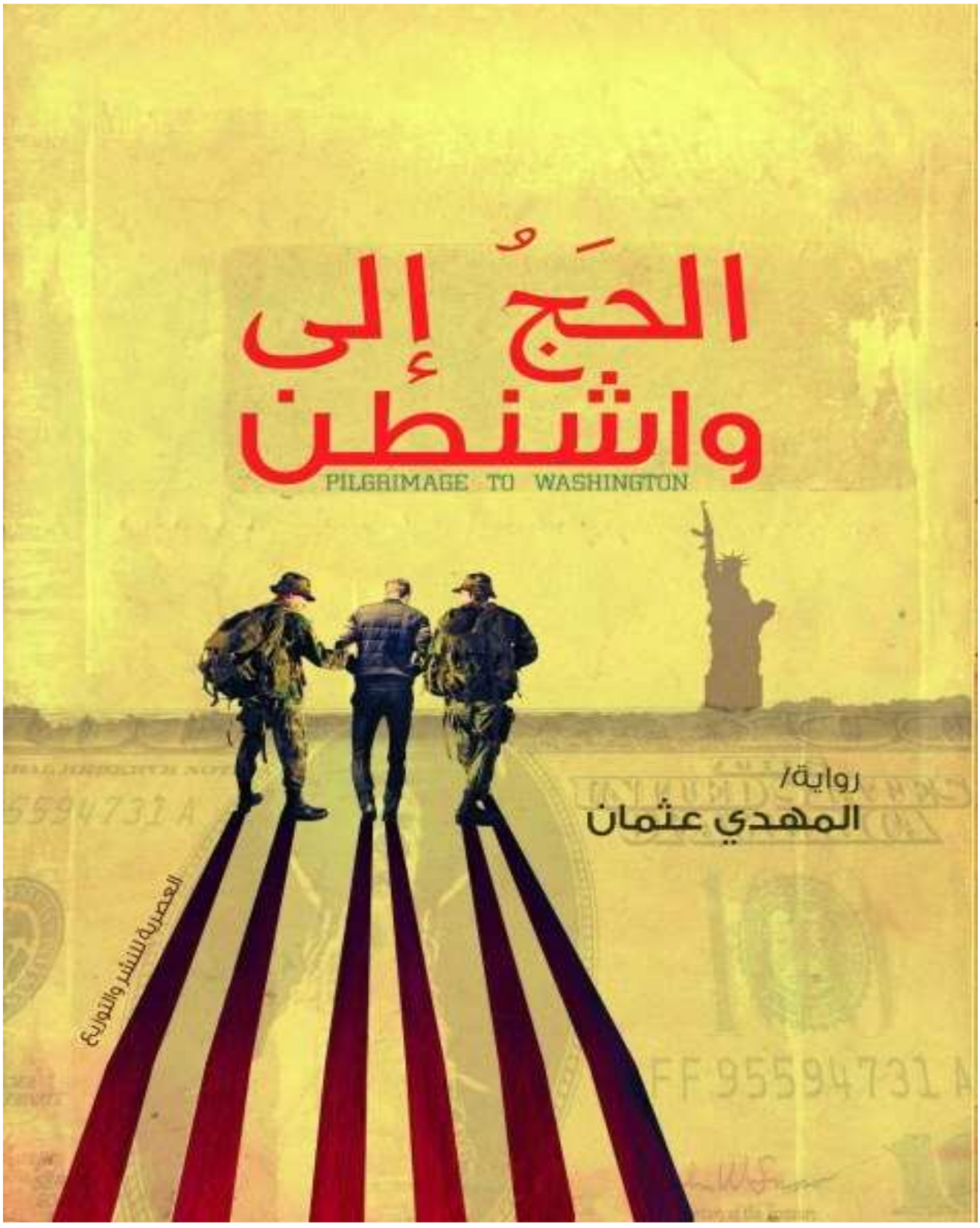

الحَجُ إلى
واشنطن
PILGRIMAGE TO WASHINGTON
رواية/
المهدي عثمان
العصرية للنشر والتوزيع

الإهـــداء

* إلى شباب الثورات العربية.
* إلى أصدقائي بمدينة قصور الساف.
* إلى الصديق المنجي العايدي.
* إلى صديقتي الفلسطينيّة " عائشة ".

المشهد الأول

هذه اللوحة للخمر

"من ألف عام أكتب إليكَ رسائل أوجاعي، فتمزّقها أو يمزّقها وجه غروركَ. كيف أحبّكَ يا حبيبي.. يا ربيع العمر والترحال.. يا قاتلي كلّ مرّة ألف مرّة.
مِن ألف عام أخضّب كلّ رسائلي بعطر أحلامي وأمنياتي المرفْرفة في سماء شموخكَ.. بعطريَ الأنثويّ الذي تشتهي. كنتُ أضمّخ كلّ أشيائي الجميلة باسمكَ : شالي الحريريّ (مثلا).. فستاني.. قلم الشفاه.. و حتى رحيق الكلام..
يـــــــاه.. كل رسائلي سقطت في بهو مياهكَ المالحة، واختنقت بمائكَ عبير كلماتي. غير أني أرى الوقت أحلى كلما كنتَ معي.. أرى الشوق أكبر كلما غبتَ، وأرى الألوان في أشدّ الأوقات قتامة.
صارت مساءاتي ـ يا أخير زمانكَ في العشق وفي الوجع ـ قنديل مخاض وعسر ولادة.
أبحث عنكَ كمن يمنح وجهه لزخات المطر، ولا أتعثّر إلا على مدارج حزني. و لمّا تعود من غيابكَ، أعود إليكَ وأنسى الرحيل وأنسى الضجر.
ها أنّكَ الآن ترحل دون بوصلة لعودة واضحة. لا مناديل تودّع قواربكَ، ولا قُبلة تحتفي بقدومكَ بعد الرحيل.
ها أنكَ الآن ترحل دون إذن من سيّد عشقنا. أمّا أنا، فمن ألف عام أشدّ الرحيل ولم أرحل.. من ألف عام أجدّف في مكاني وأرسو في بحوركَ من جديد.
مع ذلك ـ وأنا القارب دون شراع بدونكَ ـ أشدّ الرحيل كأوراق خريف يذرفها الوقت. لكنني إن سقطتُ، أرفرف مرّة أخرى ولا أنحني.
أنا إذن، أقف لأعشق من جديد، فليَ الخيار و لكَ الخيار.."

كنتُ مُلقى كالسلحفاة على ظهري، أتلو رسالتها على وجعي المقرفص حذوي، كمن يعود مريضا لا شفاء له. أُغالب ثقتي أنها من أرسلت هذا البوح إلى الصحيفة التي تعوّدتُ أن أنشر على صفحاتها رسائل عشقي إليها.
كانت تلك هواجسي وخواطري في شكل رسائل من سجن لا قضبان له، وأدوّن أسفل النصّ: "شاعر مرّ من هنا".
أدرك جيّدا أنها كانت تتابع الرسائل بملء الشغف والرغبة الجارفة. و يقينا كانت تجمع الرسائل لتحتفظ بها.. نعم أرى ذلك في التفاتتها ونظراتها المشحونة بالهمس والأنوثة الصارخة.
لم تكن ككل اللواتي عشقتُ.. كانت عصيّة ومتمنّعة، تصدّ حتى رغبتي في الكلام إليها، وتكتفي بالابتسامة. كان الحديث معها كمن يداعب قطّة تسكن دفء يديه، لتنْتفض فجأة مُنشبة مخالبها في كفه.
ما أقصر المسافة إليها وما أبعدها.. تقتلني المسافة حينا، وأخرى ذلك الماضي الذي يعلق في أهدابي كدمع سيّدة ممزوج بكحل جفونها.
وأنا في المسافة، كالملقى في بيداء لا بدّ من قطعها.. كلما طالت المسافة، زاد الإصرار على قطعها.. كلما كانت قاسية، زاد الإصرار على كسر غرورها.

.....
أغالب ثقتي، أنها من أرسلت هذا البوح إلى تلك الصحيفة، مع أني من كتب بوحا على لسانها وأرسله، يحمل إمضاءها وشوقها الذي لم تبح به.
ـ لماذا فعلتَ هذا ؟

- لأني أحبّكِ..
- ليس بهذه الطريقة.
- وبأيّ الطرق تريدين؟
- (بارتباك).. لا شيء.. دعني وشأني..
.....
بملء الثقة بالنفس، والغرور أيضا قلتُ:
- ألستِ أنتِ من كتب الرسالة ؟
ردّت بعنف لا مثيل له:
- أعرف خزعبلات الشعراء ..
Vous êtes un acteur merveilleux
وانصرفت دون أن تلتفت إلى سمات وجهي، وقد تراوحتْ بين الضحك والبكاء.
لحظتها، قررتُ أن أكتب لها آخر رسالة عشق، لها أن تحتفظ بها، أو أن تُلقيها في وجهي.
كمن يكتب رواية بفصل واحد، كنتُ أرسم ملامح رسالتي في كراس بأكمله. أمزج فيه ألوان الفرح والغبطة، بألوان التذمر والقتامة، كمن يحضّر مزيجا لرسم لوحة.
كأنني "دافنتشـي" أمـزج ألـوان "الموناليزا".. كأنّ ما أكتبه،
أعسر من رسم "غربان القمح" لفان كوخ ، أو "صرخة" للفنان النرويجي إدفارد مونش.
هنا بهذه المدينة المهزلة، أدخل تجربة عشق جديدة، بعد خمس سنوات قضّيتها بالعاصمة، أتراوح بين الدرس الأكاديميّ والنقابة والفن وقصص الحب.. أعود إلى حيث بدأت رحلة الكتابة، بنصف الرغبة الجامحة ونصف القلب المحترق. وما تبقّى، أزهر سنديانا بأحضان اللواتي عشقتُ.
هنا أيضا، تَلقى نفسكَ في مدينة تنحني فيها للرداءة والضجر المميت.. في مدينة أشبه بتمثال من الشمع لا يتطور، بل ربما يتضاءل بفعل الاحتراق.
أن تقول "قصور الساف" يعني الضجر والروتين وأشياء أخرى، ربما لا تشبه غير الموت.
هنا لا جديد تحت الشمس.. القيء يلفّ أوتاره حول أعناقنا، وأنت تضطرّ للانخراط في الشاغل اليوميّ، بوعي منكَ أو بدونه. إما أن تلتحق بطابور العمل اليوميّ، وإما أن تختار لكَ مكانا بإحدى المقاهي، تعين الكسل على التدرّب، وتمنح لجسدكَ مزيدا من القدرة على التكيّف مع الكراسي، وطرق الانطواء المختلفة، ووضع الأرجل والانحناءات والاتكاء..
حسب طبيعة الجلسة ومكانها، داخل المقهى أو خارجه، وحسب طبيعة الطقس وحالة النادل النفسية ومزاجه.
والمقاهي هنا، مقسّمة حسب الرتب الاجتماعية و المكانة السياسيّة.. فللغرباء مقهاهم الخاص، يعرضون فيها أجسادهم على الراغبين في الانتفاع بجهدهم. أما أعضاء المجلس البلديّ فهم يغيرون المقهى حسب طبيعة الأحداث والتحالفات والمصالح.. وقد يضطر البعض منهم إلى تغيير وجهته إلى مقاهي المدن المجاورة اتقاء القوادين، وخوفا من كشف التحالفات. وللمقاهي الأخرى روادها وعشّاقها بعضهم قار، والآخر يغير المكان حسب الأهواء والظروف.

وقد أودعت الرسالة/ الكراس إلــى "حبيبتي" لتقرر مصير علاقة من طرف واحد .. بدأت شوارع العاصمة تمْثل في الذاكرة وتحضَر صورها ورائحة الرطوبة المنبعثة من الأسواق العتيقة:

ـ مللتُ هذه الجدران.. هذه الأنهج السرطانية والوجوه المتكررة.. لقد تعوّدتُ على عدم الاستقرار.. هذه أخطر الأشياء التي تقلقني.

ـ الأخطر منها أن تستقر في مكان ينهشكَ كالسوس القبليّ، لتلقى نفسكَ هيكلا يزيّن ركنا من أركان هذه المدينة المهزلة.

يا صديقي.. كل المبدعين غادروها، فانتصروا لإبداعهم وكسبوا ذواتهم، فارين بجلودهم من الاحتراق.

... هذه مدينة لا يُستطاب فيها العيش.

ـ ... نعم قد أشاركك الرأي.

هكذا دار الحوار بيني وبين "صديق قديم"، ونحن نحتسي قهوة المساء بمقهى" الأقواس"، وقد انضم إلينا "النادل" قائلا:

ـ آخرهم السيد الوزير السابق.. حتى منزله على شاطئ "سلقطة" فرّط فيه بالبيع هروبا من أهله ومن سكان هذه المدينة الفاجرة.

علّقتُ مساندا رأيه:

ـ الأدهى من ذلك، أن الذي كان لا يقسم إلا باسمه ويقتات من خيراته ومننه، هو من بات يشتري قوارير الماء والقهوة لرجال الشرطة المكلفين بحراسته أثناء فترة الإقامة الجبريّة.

وأنه ـ حتى ببراءة السيد الوزير السابق ـ كان يغادر المقهى الذي يلقاه فيه حتى لا تطاله الشبهات وحتى لا يتهم بخيانته للوطن.

ـ هذه بلادكَ يا صديقي.

ـ كم تنكّرتْ ذاكرتنا الجماعيّة لشخصيات ومبدعين، أسْهموا ويسْهمون في بناء هذا الوطنْ.

ـ "ما عنْدكشي مشْكلة" نحن من صنع مفهوم تنكّر الذات.

وأنــا أشْعل سيجارة أخرى، وقف "زهير" قبالتنا:

ـ ما شفْتهاش.. ما ريتهاش.. ما مشيتلْهاش..

هكذا بدا مُرْتعشا، مُرددا نفس الكلمات والحركات.. وهو يحرّك رأسه في كلّ اتّجاه ببطء شديد، كأنّ على رأسه الطير، وأضاف:

ـ أعطيني سيجارو...

مدّ له "محسن" سيجارة وأشعلها له، لينْصرف مُكملا نفس الحوار مع نفسه:

ـ ما شفتهاش.. ما ريتهاش.. ما مشيتلهاش..

لحظتها مثُل بذهني "الخبز الحافي" و "البؤساء". بل ذهب في اعتقادي أنني صادفتُ الشخص نفسه بــ "رخيوت" أو "حوف"، أو ربما نُقلت إليّ الصورة عبر قصائد مظفر النواب، وتذكرتُ قوله:

أحد يعرف رخيوت و حوف

ما تلك من الأفلاك السيارة

و المُكتشفات
ولكن وطنا عربيّا، مملكة للجوع
و للأوبئة الجلديّة
و القيء وللثورة أيضا
شاهدتُ الحامل تأكل مما يتقيّأ طفل محموم
وتغذّي الطفل الآخر من نفس القيء الأسْود

كنتُ أسْرد قصيدته بصوت جهوريّ مرتفع، يجعل مَنْ حولي يسْتمع بانْتباه للقصيدة. لو كان " لطفي " حاضرا، لأرجع وضْعيّة هذا المجنون إلى النتائج الحتْميّة التي يُفرزها النظام الرأسمالي. وحتْما سأدخل معه في جدل عقيم لن ينْتهي. وسيبرْهن لي، أنّ طبيعة النظام الرأسمالي القائم على الرّبح واسْتغلال الطبقة الشغيلة أو طبقة البروليتاريا (كما يحلو له أن يسميها).. هو الذي سيوصل العامل إلى هذه المرحلة، بسبب الاستغلال الفاحش وعدم الاستقرار النفْسي، بسبب غلاء المعيشة واحتقار الذات الإنسانيّة، التي لا تعْدو كونها وسيلة إنتاج، أو جسدا للإشهار.
و أنا في اتجاه بيتنا ـ وقد ودّعتُ " الروح" و"محسن" ـ كانت ذاكرتي تفتّش في مقاهي العاصمة عن الرفاق والأصدقاء.. تمرّ إلى الحانات والشوارع، وتعود يائسة لترْتمي في حانة " القرصان " بالمهديّة، على طاولة لأربعة أشخاص بركن منْزو.
تضيق بيَ الدنْيا، وتُحاصرني الهزائم، فتنْتصر الخمرة هناك بذات المكان الأبْعد عن المصالح والنزوات.. الأقْرب للنشْوة و اسْتحْضار المؤلم والمخيف.. الفجيعة والألم.. الجراح والهزائم..
نعم بالخمرة فقط، يمكن أنْ تخْرج من بوتقة الواقعي، إلى جهة صوْب الحُلم، فتأتي إليك عشيقاتكَ وحبيباتكَ ورفاقكَ، وتحضر السلطة أيضا والفنّ والشعر والتنكّر للوطن والدين.
كنتُ وحيدا على طاولة مُنفردة، أمْزج التعب بحبّات العنب، وأضيف الجعة.
سحبْتُ قلمي وكنّشا كثيرا ما يصْحبني، وبدأتُ أشاغل شيطان الشعر ليحْضر... فحضر النادل ليغيّر منْفضة السجائر، متسائلا:
ـ هل أزيدك؟
دون أنْ يُكمل، أشرتُ له برأسي علامة الموافقة، مسْتعينا بالسبابة والوسْطى، فأحضرهما دون أنْ أنْتبه إليه أو أنْشغل عن الورقة، وهي تفْتح فخذيها للفكرة المُتمرّدة من الطرّة إلى آخر نقطة في الطرف المقابل. هذيان وعرْبدة وفوضى وأفكار أشْبه بالأناجيل القديمة.. لا هي بالشعر ولا بالخاطرة ولا بالمقالة ولا شيء...
غير أنّ الفكرة تحْضر دون أنْ تُرتّب هندامها وتغْسل وجهها الصباحيّ.. تحْضر مُتثائبة، متمرّدة، فتنْفض رائحة نومها على الورقة، دون أنْ تكون لتلك الرائحة معنى.. ربما كانتْ رائحة الخمر أشدّ تأثيرا عليها، فترنّحتْ المعاني وسكرتْ...
ووجدْتني أكتب:

ربّ سامحهم و إنْ لم يسْكروا
كيف يشْتاق إلى خمْرة جنانكَ
من لا يعرف الخمر

و يشْتاق صباياها
إنْ كان هنا ما عشق.

كأني ما كتبْتُ غير نصّ أحفظه للنواب.. كأنّ ما حضر غير حانة بأحد شوارع العاصمة مع الشاعر "عبد الوهاب"، وكان يردّد هذا البيت نفْسه وهو ثمل، مُحْتفلا بقدومي على طريقته... نفْس الخمرة.. نفس الأجْواء الخانقة والبائسة والمُتمارضة، مع اختلاف في المكان.
كان يسْرد قصّة تعرّضه لحادث مرور أفقده ساقه، وأفقده نساء نزواته... هذا الشاعر المُتكالب على اللذّة والنساء، كلما التقيْتُه، التقيتُ بأصناف من المومسات والساقطات والعاهرات.. كأنّ الشعراء ما بُعثوا إلا ليُتمّموا المهمّة الهادفة:
مهمّة إنقاذ المومسات من الشرف، وإنقاذ الحانات من الإفلاس، وإنقاذ رجال الأمن من البطالة، وإنقاذ قطط الشوارع والقوادين والبصّاصين والبوليس السياسيّ... لذلك يجتمع كلّ هؤلاء، للتنْكيل بالشعراء أو الانتقام منهم.
إنّ المشهد الأكثر ألما، هوّ أنْ تبات وحيدا بلا أنثى تحضن عرْبدتكَ، وأنتَ راغب في زرع نزواتك في ترْبتها المالحة لذلك أوْمِن حدّ الكفر، بأنّ سيّدة إذا باتت لوحْدها، فتلك خطيئتنا نحن الرجال.
أنا و "عبد الوهّاب" أعْددنا المشهد جيّدا، ولم يتبقّ إلا هي.. خصّصنا مساء كاملا للبحث عمّن تحْتفي بجنوننا، فلمْ نظفر بغير خيبتنا. وحتى التي وعدتْنا بأنْ تلْتحق بنا آخر الليل، لم تأت.
وبتْنا ثلاثتنا، أنا وهو وعلب الجعة، نلعن الشعراء والنساء ومربّعات الرصيف والسّاسة والحكم الجمهوريّ وخرائط التقْسيم العنْصريّة و... و...
في ليلة كهذه أزدادُ إصرارا على الانتقام من أيّ سيّدة تعْترض طريقي، فأحوّلها إلى مومس أو حاقدة أو مُصابة بمرض فقْدان مناعة الكرْه.
في قبْو على وجْه الكراء أكْملنا ليلتنا بين الشعر والشعراء وسياسات العالم الثالث، مُحاطة أفكارنا المترنّحة بدواوين الشعر وكتب الفلسفة والصحف اليوميّة وقوارير الجعة.

.....

حضرتْ كلّ هذه الأفكار، وأنا لا زلتُ بحانة القرصان تتداول عليّ العلب الروحيّة، ويتداول على المكان بحارة وطلبة وفقراء، يراوح بينهم نادل يقتات من سُكرهم وسَهْوهم وما يتركون من مال تبقّى من فقرهم. كأنك تحضر مشْهدا يتكرر عند "حنا مينة" أو "محمد شكري".
كنتُ كثيرا ما أتساءل عن الدوافع التي تجْعل البحّارين أكثر روّاد الحانات والمواخير. هل الفقْر ؟ أم الجوع ؟ أم قساوة البحْر وموجه ورطانته وحدّته. بلْ ربّما احتفاء بالحياة بعْد خروج من بحْر قدْ لا يخْرج منه منْ دخله للمرّة الأولى أو حتّى للمرّة الألف.
قطْعا للبحار دلالاتها عنْد الشعوب.. بعْضها تراها امتدادا لها أو تواصلا مع أجسادها وأرْواحها وثقافتها. وبعْضها ترى البحار بوابات لهجوم الأوبئة والجيوش والقمع. فإلى أيّ الشعوب ينْتمي هؤلاء البحارة الذين أمامي بهذه الحانة ؟ قطعا للصنْف الثاني من الشعوب. وإلا ما غادروه خائفين كمن خرج للتوّ من رمْسه، فيحْتفي بالخمْرة و المومسات. ليدْخل البحر ثانية كمن يسْتفزّ القَدَرَ كرّا و فرّا.

هنا بهذا المكان العتيق الأشبه بحانات أوروبا زمن محاكم التفتيش.. الدخان يحجب الوجوه والتفاصيل ويُضفي على الجدران المطليّة بالجير لونا رماديا، كقلب سجين لا يعرف تُهمته. .. ضجيج.. وصراخ وفوضى وقرع كؤوس على أنخاب هزائمنا الممتدّة من البحر إلى البحر. كأنّ هؤلاء يهربون مـــن حروبنا المتكررة وخسائرنا المتكررة.
أُنظرِ الطاولات، ترى عَرَق الخشب يخرج من مسام الأشجار الأولى، كأنه يتنفّس خارج طبيعته " فما أدراك لماذا هذه اللوحة للخمر وتلك لصنع النعْش وأخرى للإعلان".
ذكّرني القول بحوار دار بيني وبين صديق يمنيّ يتردّد على تونس باسْتمرار:
ـ أعلن إعلانا، الأمْر وبه: أظهره وجاهر به. والإعلام هوّ إحداث المعرفة عند المخاطَب على وجه الصدق.
هكذا كان صديقي "الناصر سالم" يفسّر لي مفهوم الإعلام والإعلان ووسائلها، مسْتشهدا بوسائل الإعلام العربيّة التي حادتْ عن دورها.
فهي لا تُظهر ولا تُجاهر ولا تُحْدث المعْرفة، فهي إذن ليستْ وسائل إعلام.
علّقْتُ:
ـ وماذا تُسمّيها ؟
أجاب:
ـ هيّ وسائل إعلاء و ليستْ إعلاما.. بمعْنى هيّ وسائل إعلاء مكانة الحكام والساسة وتقْزيم الحقيقة وتأليه الخُطب والقرارات.
ـ ولكنّك مُتحصّل على دكتوراه في الصحافة. أليستْ مفارقة ؟
ـ عندما أكملتُ مرحلة الأستاذيّة، كُلّفتُ بالإشراف على دوريّة تُصدرها جامعة صنعاء. اِكتشفتُ خلالها أنّ ما أقوم به ليس سوى رشّ المبيد على جثّة لإبعاد الذباب.
لهذا غادرْتُ صنعاء بلا عودة إلى ألمانيا. ولأنه ليس بالإمكان التوجّه إلى برلين انطلاقا من اليمن، طالما أنّ اليمن السعيد على قائمة الدول الراعية الإرهاب، وأنه محضنة لتفْريخ المتطرّفين والإرهابيين.. اِتّصلتُ بأصدقاء يساريين يدرسون في روسيا ليساعدوني على الإلتحاق بالجامعة وتمّ لي ذلك. وبعد حصولي على الدكتوراه اتّجهتُ إلى ألمانيا واشتغلتُ هناك.
ـ و العائلة ؟
أكمل بسخْرية من يدخل حربا خاسرة:
ـ نحن ثمانية إخوة غادروا كلهم تراب اليمن السعيد في اتجاه الأراضي الأكثر سعادة. أحدنا في أستراليا وآخر أقام بالولايات المتحدة والبقيّة يتراوحون بين بريطانيا وألمانيا وفرنسا.
(تنهّد) المهزلة يا صديقي، أنه لا يمكن لك أن تكتشف مفهوم "المواطنة" إلا خارج أرضك العربيّة.. صدّق وأنا مقيم بألمانيا قرابة الستّ سنوات، تمّ إيقافي مرّة واحدة من قبل رجل أمن، تصفّح أوراقي وحيّاني لأنصرف.
أما وقد كنتُ في وطني السعيد، فلا يمكن أن يمر اليوم دون أن يكشّر رجل الأمن في وجهك، وربما يشكك في وثائق الهويّة، وقد يدعوك لاَصطحابه إلى مركز الأمن لإتمام الإجراءات.
ـ (كأني أذكره بحادثة ربما لن ينساها) ولعلّ ما حصل لك في تونس خير دليلي على ذلك؟
ـ آه.. في تونس المسألة مختلفة. تشعر أنّ أنفاسك تسجّل في جهاز أمن الدولة أو البوليس السياسيّ .. كل حركاتك وسكناتك.

ففي آخر مرّة أوقفتُ في المطار وتمّ التحقيق معي لمدّة فاقت الأربع ساعات، اتضح للأعوان بعدها أنّ خطأ ورّطهم.. كتشابه في الأسماء مثلا.
سكب كأسا من "الويسكي"، وكنا لا نزال نتسامر في غرفتي الضيّقة المحْشوّة بالكتب والصحف وأشرطة الكاسات. أشعل سيجارة وأكمل:
ـ أتدري يا رفيقي، أنني كلما دخلتُ وطنا عربيّا أشعر أنّ مكانتي أكبر مما كنتُ أعتقد. خاصة وأنني مطالب بتحديد مكاني وإقامتي ومن سأزورهم ومن سأقابلهم و ...
دون أن أنسى طبعا أنّ إجراءات دخولي قد تسْتغرق الساعات، بسبب وحيد كوني من اليمن السعيد.
هكذا كان يغرف من جرحه ويبْسط الحكايات على طاولة الخشب التي أمامنا، والتي هيّ بالضرورة للخمر وليست للإعلان.
كان يسرد لي بمرارة واقعا مؤلما ومأساويا عن المواطن اليمنيّ، وخاصة في الجنوب الاشتراكي. وبسبب إيديولوجيّة هذا الجنوب ـ وككلّ جنوب عربيّ ـ تمّت معاقبته لسنوات، وتواصل العقاب حتى مع تحقيق الوحدة. لهذا فرّخ الفقر ما يسميه الآخر "إرهابا" أو "تطرفا"، ونسميه كذلك اِقتداء بالآخر أو خوفا منه.
فالآخر يخيط المفاهيم على قياسه، ويعرضها للاستهلاك الخارجيّ. أما نحن فنرحب بالمفاهيم ونعلّبها وننمّقها للاستهلاك الداخليّ. وبين الداخل والخارج طرف يمارس الإرهاب الفكريّ، على طرف آخر ويجبره على الاعتراف بمفهوم الإرهاب الذي سطّره.
تناول حقيبته الجلْديّة الصغيرة، وسَحَب من طياتها رواية "المُستنْقع" لحنّا مينة، وبسرْعة أدْركتْ أصابعه الصفْحة التي أرادها قائلا:
ـ لم يشدّني كاتب عربيّ مثلما شدّني هذا العظيم حنا مينة. وخاصة روايته هذه.. عنْدما أمرّ على سطورها أجدني أعيش تلك الأحداث، داخل ذلك الحدث الروائيّ.. إنها أحْداثي أنا .. واقعي.. حياتي.. وربّما أحداث كل مواطن عربيّ وواقعه وحياته، اسمع ماذا يقول:
".. نحن كنا تلك الدودة على الصخْر. كنا دُودا على صخْر ليْس على جوانبه أيّما خضْرة أو تراب. كان الحيّ كلّه دودا يلوب في مسْتنْقع صخْريّ فيه كلّ الأوحال وكلّ الأقذار، وليْس فيه أيّما شيء يؤكل، ولم يعدْ نصْف أهل الحيّ يعملون، ووصَلَ الأمْر ببعْضهم إلى بيْع أثاث بيوتهم وأمْتعتهم، وكانوا يفعلون ذلك وهم ينْتظرون الفرَحَ، لكن الفرَح كان بعيدا.."
(أعاد الكتاب لمكانه وأكمل)
ما رأيك؟ أليْس مـن حقّنا أنْ نفجّر أنفسنا ضدّ مـن جعل وضعنا يأخذ ذلك الشكل؟
قلتُ بيني وبين نفسي:
ـ من الغباء مقاومة الآخر بتلك الطرق الانتحارية.
كمن وجّه مضخّم الصوت إلى ساحة عموميّة بالعاصمة، انتبه" الناصر " لتعليقي، كمن تنصّت على وشوشات القلب، وعلّق:
ـ أنت إرهابيّ حتى وأنتَ يساريّ. حاول مثلا أنْ تُشكك في المفاهيم.. أو تمدح المقاومين والمناضلين والانتحاريين.. أو شكك في المحارق النازيّة.. أو..
(ولم يكمل كلامه كأن أحدا أشهر خنجرا في خاصرته)
كنتُ أسْتوعب ما يسرد بنبرة يمنيّة عربيّة ما زالت تعلق في أهداب لغته المستعملة، رغم سنوات الغربة والتغريب.

مع ذلك حاولتُ أنْ أضيف شارحا.. متسائلا أو متداركا، لكنني لم أجد خيوط اللغة الأولى وانفرطت الأحرف كحبات عقد مرجانيّ.
انتبه لارتباكي، وأكمل:
ـ مــاذا يسمى غزو دولـة لإسقاط حكومتها واحتلال أرضها؟
ـ إرهابا.
ـ لا ...
ـ ماذا إذن ؟
ـ دفاعا عن النفس.

أمسكتُ بناصية سخريته، وأيقنتُ أنه يمارس نوعا من البلاهة المتعمّدة.
وأكمل :
ـ كلّ دفاع عن النفس ليس إرهابا.
ـ إذن من يُناضل يدافع عن النفس أيضا.
ـ بالضبط، لذلك فكلاهما يملك شرعيّة سحق الآخر وإلغائه من التاريخ . إذن من يثبت التاريخ أنه الأقوى، سينتصر.

للمرّة الأولى أتعثّر على عتبات تفسير بهذا لشكل البسيط والمعقّد، لذلك قبلته بمنطق من شعر بهزيمته. ولولا ثقتي بصديقي وإيماني بمواقفه، لقلت أنه تفسير مشبوه.
مع ذلك تساءلتُ:
ـ لكن الأقوى لن يبقى دائما كذلك.
ـ .....
لم يُجب عن تعليقي، رغم أني وجّهته له مباشرة وبصوت عال. واكتفى بإشعال سيجارة.
فهمتُ إصراره على عدم الإجابة، ربما لأنّ ملاحظتي لا إجابة يملكها لها، أو ربما هيّ ملاحظة بلا إجابة أصلا.
تناولتُ شريطا غنائيا، وشغلت آلة التسجيل ليصدح الشيخ الضرير:

والنهاية يا خواجة
مَنْ في يوم كانت بداية؟
البداية برضُه لازم
بيِيجي يوم توصل نهاية
مهما زاد الرأسمال
الهلاك هوّ المآل
والتاريخ هوّ إلي قال
لعبة الموت في الحياة
يسْحب الروح من الحناجر

لا زالت الأفكار تتواتر على صدْغي، وأنا بنفس الحانة أناجي الخمرة وأحتفي بالسكارى إلى أنْ تناهى إلى مسمعي آذان صلاة العصر. تذكّرتُ لحظتها أنني وضعتُ كأس الخمر على الطاولة اِحتراما لآذان الفجر وأنا أجالس الناصر.

فيما لم ينتبه الشيخ الضرير، وأكمل:

توت توت
حاوي توت
خُشّ اتْفرّج
هرّجْ فوتْ

استحضرْتُ قصّة العراقيّ " أبو مصعب ". نقلها لي صديق صحافيّ، كنتُ قدْ تعرّفْتُ إليه أثناء زيارتي الأولى إلى مصر. وقد حكى لي كيف كان أبو مصعب يستمع باستمرار لأغاني الشيخ الضرير مُعتقدا أنه إذا ما داهمت منزله القوات الغازية سيخلون سبيله، طالما أنه لا يستمع إلى القرآن أو إلى إحدى الأشرطة المحرضة على الجهاد لتنظيم القاعدة أو حتى لحزب البعث المُنحلّ.
لكنه تمّ اعتقاله، وفهمتْ القوات العراقيّة المُصاحبة للقوات الأمريكيّة أنّ ما يقوم به ليس سوى خدعة.
و بسجن أبو غريب لم يكن يعرف ولمدّة ستة أشهر لماذا وكيف وأين سيحاكم ولا يتعقّل مكان وجوده، وكم عدد الداخلين والخارجين وهويّة رجال الأمن نساء ورجالا.
دخلتْ مجنّدة أمريكيّة وقادته إلى غرفة أخرى لا تختلف عن الأولى، تعْبق برائحة البول والرطوبة والقيء والدم المتجمّد، كلون الرماد على الجدران، يشكل لوحات تجريديّة تحيلك لتشْكيلات الفنّ الحديث.
بمجرّد دخوله الغرفة، دفعتْه ليسْقط أرضا وارتطم وجهه بحذاء مجنّدة أخرى. اِنحنتْ عليه لتفكّ قيده، وأمرتْه بخلع ملابسه ففعل.. لكنه ..
فأشارتْ إلى ملابسه الدّاخليّة، فارتبك وتجمّدتْ أطرافه.. كالماسك بعشْبة بأهداب جبل شاهق يتدلّى يوشك أنْ يبْتلعه السقوط، إلى نهر ليغرق أو صخرة ليسْتحيل عهنا منْفوشا.
ظلّ على صبره، ربما ينتظر أنْ ترْفعه العشْبة إلى أعلى.. ربما تسْتدْرك المجنّدة فتأمره بارْتداء ملابسه، لكنها وخزتْه بعصاها على إيره.
.. يـــاااا الله.. قالها كمن ينادي "أحدٌ.. أحد"، تحت صخرة وما هيّ بالصخْرة.. تجْثم ككوكب على أضْلعه الباهتة.
تلعْث.. تمايل.. مدّ يده ليمْسك تلك العشْبة، أو يمسك العصى. لكنّه أمْسك وجعا في أضْلعه وشراينه.. وجعا في الذاكرة والأشجار و الأنهار والمسلات.. وسقط مغْشيّا عليه.
تتالتْ البصقات على وجهه، وكادت إحدى المجنّدات ـ وهي تفك حزام بزّتها العسْكريّة ـ أنْ تفتح فخذيها لتتبوّل على وجهه. لكنّ البصاق الذي غطّى وجهه والركل بالأرجل والعصيّ كان كافيا ليمْسك وعْيه.
أفاق، وكانت يداه مقيّدتين أمامه، و لا شيء يسْتر عورته. أوقفتْه المجنّدة وراحتْ تُحرّك إيره بعصاها، وتمرّرها بين فخذيه و إليتيه بحركات جنْسيّة لم يدْرك معناها.
خرجتْ المجنّدة الأخرى، ثمّ عادت تصطحب سجينة عراقيّة بلا ملابسها، تدْفعها أمامها بسوط كمن يقود دابة، ودفعتها بعنف أمامه مقيّدة بحبل من عنقها كشاة تُقاد إلى الذبح.
وأجبراها على البقاء مُنحنية كدابة ليعْتليها السجين كثور تسْبقه العصا والسوط.

لم يكن ليتخيّل أنْ يجد نفسه في وضعيّة كهذه. كان يتمناها وهو في عنفوان شبابه، لكن العصا أفقدته شهوته والرغبة الجامحة، وأبى إيره أنْ يطاوعه.
فيما كان السوط يجبره، كانت المجنّدة بهاتفها الجوال تصوّر المشهد المضحك المُبكي، وتُغيّر زاوية التصوير كلّ مرّة للحصول على مشْهد مُغاير.
لم تُبْد السجينة أيّ مقاومة، بل رغبة ربما بفعل التعوّد أو ربما نجحت معها تجربة الانتباه الغريزيّ عند "بافلوف".

كان أبو مصعب يسْرد قصّته لصديق صحافيّ يعمل مراسلا لصحيفة عربيّة بالعراق. وكان يُمنّي النفس أنْ يساعده الصحافيّ على فضح تلك الممارسات وتعْريتها. غير أنّ الصحافيّ إيراد الحاج تمّ فصله وإحالته على البطالة الإجباريّة.
حكى لي صديقي الصحافيّ، أنّ دولته منعتْه من الالتحاق بأيّ مؤسسة إعلاميّة أخرى، حين تمّ حجز جواز سفره. وأمام الضغوطات المتواصلة من المنظمات الحقوقيّة ألحقوه بالعمل في مؤسسة تعليميّة ليهتمّ بشؤون التوثيق.
وكنتُ قد تعرّفْتُ إلى الصحافيّ إيراد الحاج في زيارة إلى مصر إثْر دعْوة وُجّهتْ لي من تنظيم ثقافيّ يتبع حزب "كفاية".
صادفْته منذ اليوم الأول لدخولي المرْكز الثقافيّ، وتعارفْنا. لا أعرف ما الذي شدّني إلى هذا الدمشْقيّ، ربّما لأنه من دمشْق الصّامدة لا غيْر. وربّما لأنه صحافيّ، رغْم أنني عرفْت الكثير من الصحافيين ومن السوريين.
أذكر أنني لمّا أكملتُ قراءة قصيدتي الثانية في الأمسية الثقافيّة المخصّصة للتضامن مع الشعب الفلسطينيّ، نهض من كرسيّه واعْترضني فاتحا ذراعيْه كمن يسْتقبل عائدا من الحرْب. وانزوينا في ركن نناقش النصوص الشعريّة والمواقف السياسيّة وجملة الأحداث الحاصلة في المنطقة العربيّة ودور المثقف العضوي من جملة تلك الأحداث.
انتهى برنامج الملتقى وتُرك لنا خيار تأثيث ذلك المساء.
بعضنا غادر في اتجاه الأسْواق العتيقة للتسوّق وشراء بعض التحف المصريّة وصور "نفرتيتي" المصبوغة على ورق البردي. وقد حكى لنا بعضهم كيف تمّ تهريب تلك التحفة الرائعة واسْتحواذ ألمانيا عليها. حتى أن "هتلر" خالها امرأة شرقيّة قابلة للمضاجعة.
أما أنا وإيراد فلازمنا النزل بقاعة الاسْتقبال يصحبنا شاعر مغربيّ، وانخرطنا في الحديث عن الفنّ والسياسة وعلب الجعة.
أكملنا حديثنا عن الوضع الراهن، ومواقف الدول والحالة الأمنية في العراق ولبنان وفلسطين.
وفيما كان صديقنا المغربيّ " حسين " ينحني بالنقاش إلى جهة الشعر والفنّ والفلسفة، التفت إيراد جهة ثلة من الخليجيين في ركن من قاعة الاسْتقبال تطوف عليهم بعض فتيات الهوى، وعلّق بسخرية مريرة:
ـ ما أقبح مثل هذا الواقع المتعفّن.. (مشيرا بإصبعه) أنظروا هؤلاء الخنازير (مسك علبة الجعة، ورفعها إلى مسْتوى وجهه) تتحدّثون عن المقاومة بهؤلاء؟
قولوا.. بهؤلاء؟؟
علّق صديقنا المغربي بسخرية، وهو يسْتأذن للمغادرة:
ـ هؤلاء يجب أنْ يطبّق عليهم قانون الجنس الآري عند صديقنا هتلر.

قلتُ مواصلا نهج سخريته:
ـ وهل هؤلاء من الجنس الآري؟ أم من اليهود الواجب ذبحهم؟
أضاف وهو يغادر مترنحا دون أنْ يحمّل كلامه أيّ شيء من المنطق:
ـ البقاء للأقوى..
غادر صديقنا حسين، فيما بقيتُ أنا مع إيراد نُكمل ما بدأناه من حديث.
كان ناقما على ذلك المشْهد الذي أمامنا إلى حدّ أنه شتمَ سيّدة حاولتْ أنْ تقترب من مجلسنا باحثة عن المتعة.
كنتُ لا زلتُ لا أعرف صديقي تمام المعرفة، ولا قدرة لي على توقّع ردّات أفعاله، ولذلك سألته بحذر شديد:
ـ ما بك ؟ لماذا كلّ هذا الهيجان؟
ـ لا شيء.. لا شيء..
ردّ بهدوء حاول أنْ يتصنّعه، وتراجع بظهره إلى الخلف مسْتريحا إلى ظهر الأريكة. سحب سيجارة فرنسيّة، أشعلها، وانخرط في بكاء كان من الممكن أنْ يلفت انتباه الحضور، لو كانوا قريبين منا.
وأنا أسكب كأس الجعة في جعبتي الظمأى بفعل حرارة القاهرة، خمّنتُ أنّ إيراد فقد حبيبته التي لا مثيل لها على سطح هذا الكوكب.. فللعشاق أوهامهم.
سألته:
ـ ما بك إيراد؟ هل خطرتْ ببالك حبيبتك؟
ـ (قاطعني مبتسما بسخرية، وهو يكفكف دمعه)
حبيبتي؟ أنا لا حبيبة لي.. منذ ذلك الحادث الملعون، طلّقت النساء والعشيقات.
ـ لم أفهم.. أيّ حدث؟
ـ لا داعي فالمسألة مؤلمة، ولا تهمّك في شيء.
ـ إذا كانت مؤلمة، فنحن تعوّدنا على الآلام والجراح. أما أنها لا تخصّني، فهذه مسألة أخرى.

شعر إيراد أنني تضايقتُ، لأنني لم أكن محل ثقته. انتبه أكثر واقترب منّي قليلا وأكمل:
ـ صديقي.. لا أعرف ما الذي جمعني بكَ في هذا الوقت؟ رغم أنني فقدتُ الثقة في الصداقات التي جمعتني برجال ومثقفين و سياسيين.. إلا أنني لا أعرف لماذا أقترب منكَ وشعرتُ برغبة جارفة في صداقتكَ.
ـ هذه مسألة لا تخضع للمقاييس..
ـ (أكمل دون أنْ ينتبه لتعليقي) شعوري أنك من بلد مختلف وبعيد، إضافة لمواقفكَ التي حملتها قصائدك، و كلامك.. هوّ ما جعلني أرتاح إليك وأعطيك سريّ.
ـ هل المسألة خطيرة إلى هذا الحدّ؟
ـ ربما ليستْ ذات أهمية.. فأنا تعوّدت عليها، ولكنها مسْألة مؤلمة وجارحة وحافرة في العمق.
عندما تخرج من حادث مرور وتكتشف أنك.. أنك..
ـ أنك ماذا ؟

ـ أنك.. فقدت رجولتك.. كيف يمكن أنْ تُقبل على الحياة من جديد؟ أنتَ الآن مخصي.. بلا رجولة ولا فحولة ولا.. أيّ طعم للحياة ؟؟؟
إنّ الجرح الذي بداخلي لا تكفي أدوية العالم لعلاجه.. (كررها متأوّها) مجروح يا صاحبي.. مجروح..
ـ إيراد...

حاولت أنْ أجيب عن أسئلة لم يطرحها، أو أوضّح مسائل ليست غامضة.. أنْ أتكلم في وقت لا الكلام له كامل القدرة على التفسير والإيضاح، ولا الصمت بإمكانه أنْ يواسي صديقي المطعون في رجولته.
طال الصمت بنا، لا هو أضاف على جرحه شيئا، ولا أنا أضفت ما به أواسيه أو أدفعه للنسيان.
ظلّ يدخّن بمرارة ويحتسي الجعة بشراهة المنتقم من رجولته، فيما بقيت أداعب علبة السجائر والولاعة كاستعاضة عن الكلام.
هكذا أكملنا ليلتنا إلى أن نهض مرهقا بفعل الجرح والجعة و البكاء. و دون أن يلتفت قال:
ـ تصبح على خير.
ـ تصبح على خير.
انتهت ليلتنا عند هذه القصّة المؤلمة، بل لعلّ هذه القصّة هيّ التي وطّدت علاقتي بإيراد. حتّى أنني فقدْت السيْطرة على مشاعري ـ وأنا أودّع القاهرة ـ فبكيْتُ. شدّني بعنف من كتفي وقال: لا تبك نحن لا نلتقي في المكان، نحن نلْتقي في القضايا.
بآخر رسالة وجهها لي، ولم تكن تحمل اسمه على الظرف ككلّ رسائله السابقة، كتب:
"رفيقي.. كلّ هزيمة وأنت بخير.
اليوم وأنا أكتب لك هذه الرسالة، بصدد التحضير للتّسلل إلى لبنان عبر الحدود في اتجاه الولايات المتحدة..
سأراسلك من هناك.
إذا تأخرتْ رسالتي لأكثر من شهرين، أكون حينها ضيفا على أحد السجون العربيّة. هذا إذا لم أكن ضيفا على غوانتانامو."

الإمضاء
صحفي مفصول
إيراد الحاج

قرأت الرسالة عدة مرات، علّي أعثر بين السطور على نصّ خفيّ، ففشلْتُ.
مزّقتُ الظرف علّي أعثر على نصّ كُتب على واجهته الداخليّة، فلم أظفر بغير خيْبتي. لذلك اقتنعْتُ بالرسالة، وفسّرْتها كما هي، متسائلا:
ـ فهمتُ هروبكَ إلى لبنان، لكن لماذا الولايات المتّحدة ؟
ظل السؤال مُعلّقا بأهداب القتامة والغموض.
ـ لماذا نشدّ رحيلنا دائما في اتجاه الشمال؟ هل الشمال هوّ شمس الحقيقة ؟ أم أنّ شمسنا كلّ أوطاننا؟ ثمّ لماذا الهجرة أصلا؟ هل هو الخوف؟ أم الهروب؟
أم البحث عن زوايا أكثر دفئا؟
الغريب أنّ هِجْرتنا تضاعفت بعد أحداث 11 سبتمبر، في الوقت الذي كان من المفروض أنْ تتقلّص، طالما أنّ الآخر بات يرفضنا صراحة.
تكهّنتُ أننا نحمل إليهم صكّ براءتنا ليوقّعوا عليه. كمن يقول:
ـ ها أننا بينكم، فنحن براء من تهم الإرهاب.

اِعتراف كهذا لم يصدح به المواطنون الفلسطينيون، على خلاف العرب قاطبة. هؤلاء المنتشرون على سطح هذا الكوكب، لا يحتاجون إلى إثبات براءة، ولا إلى شهادة حسن سيرة وسلوك، طالما أنهم شعب لا يسْتحقّ تلك الصفة. وأنّ طردهم واغتيالهم ومطاردتهم، تدخل ضمن مفاهيم إثبات حقّ شعب الله المختار في الوجود والبقاء.
لم تكن وسائل الإعلام تُظهر تلك الحقيقة الماثلة، رغم التبجّح العربيّ بالدفاع عن قضيّتهم. وهو ما أثبته لي صديقي الناصر سالم بالقول أنّ وسائل الإعلام لا تُظهر إلا ما يدعم مواقفها، ويخدم الأطراف التي تُمثّلها.
و قد تأكّد لي ذلك، وأنا ألتقي صدفة بفتاة فلسطينيّة تدرس في تونس.
حين كانت تسْتعدّ للمغادرة نحو قطاع غزّة، أعلموها أنّه لا يمكن الدخول إلى مصر إلا بطلب تأشيرة من السفارة المصريّة بتونس. وحتى الدخول عبر الأراضي الليبيّة لا يتمّ بالمثل إلا بتلك الوثيقة. وهذا الإجراء خُصّ به الفلسطينيون دون سواهم أثناء الحرب الدائرة رحاها بين إسرائيل وحزب الله.
انتظرتْ صديقتي "لينا" أسابيع للحصول على تأشيرة دخول التراب المصريّ. غير أنها بقيتْ على الحدود قرابة الشهر في انتظار فتح معبر رفح، بإذن من الحكومة الإسرائيليّة المُنْشغلة بحربها مع الشيعة.
و إذا بـ " لينا " تعود إلى تونس قبل انتهاء العطلة الدراسيّة بأيام، مخافة دخول غزّة ومنعها من المغادرة.
حكتْ "لينا" أنّ والدها الذي فرّ بجلده من الأردن إثر مجازر أيلول الأسود تمّت تصفيته في لبنان "بقلعة الشقيف"، التي كان يسيطر عليها الحزب الشيوعي وحركة فتح. وباعتبار اِنتمائه لليسار العربيّ وقع اغتياله من قبل مجموعة من الفتحاويين المتطرّفين، وقد دُفن هناك.
وأنّ شقيقها الأكبر ـ الذي ينتمي إلى ألوية صلاح الدين ـ نفّذ عمليّة انتحاريّة في نقطة تفتيش إسرائيليّة، مما أدّى إلى وفاته وقتل جنديين. فما كان من القوات اليهوديّة إلا أنْ

عمدتْ إلى اعتقال شقيقه "عزام"، ونسْف منزلهم. وبعده بقيتْ أمها وأختها الكبرى تُقيمان عند جدّتها.
وهذا المشْهد المتكرر بين العائلات الفلسطينيّة لا يُثير اسْتغْراب السائل. بل الاسْتثناء أنْ تُصادف عائلة فلسطينيّة كلّ أفرادها على قيْد الحياة.
سألتها:
ـ كيف يكون والدكِ يساريّا، وشقيقك يمينيا؟
كيف تجمعهما نفس العائلة؟
أجابتْ وكأنها كانت تنْتظر مثل هــذا السؤال:
ـ وعمّي "ياسر" ينتمي إلى حركة أمل الشيعيّة. وهو لا يزال إلى الآن في لبنان، ويُشاع أنه اِنْضمّ إلى حزب الله الذي يتزعّمه حسن نصر الله.
أما اِبن عمي "نوّاف" ـ وبعد حصوله على الجنْسيّة العراقيّة ـ فقد اِنظمّ إلى حزب البعث أثناء دراسته في العــراق، ورفض الخروج من بغداد أثناء الحرب الكويتيّة ولا حتى الحرب الحاليّة التي تقودها الولايات المتّحدة. ولا نعرف عنه شيئا، ويشاع أنه ينشط مع المقاومة العراقيّة.
سألتها، كمن يسْتجوب سجينا سياسيا:
ـ وبقيّة العائلة ؟
ـ ليس لي خالات.. وأخوالي كلهم أكلتهم الحرب و هم لا يزالون شبابا. خالي الوحيد الذي نجا، وقع اِغتياله منذ سنتيْن.
ـ اِغتالته القوات الإسرائيليّة ؟
ـ لا .. كثُر الحديث عن علاقاته المشْبوهة بالكيان الصهيوني، وأنه يمدّه بمعلومات عن المناضلين.
و ما أفاض الكيل، هوّ القبض علــى شاب قبْل أنْ يُنفّذ عمليّة اِنْتحاريّة فـي حافلة. فتمّ قتله، باعتباره عميلا.
سألتُ مُرتبكا، وأنا أتحسس علب السجائر:
ـ بتلك السهولة؟
ـ طبعا لا .. تعرف أنّ التنْظيمات الفلسْطينيّة لها أتْباعها وعيونها، ولا يُمْكن أنْ تُنفّذ هذا الفعل دون التأكّد منه.
ـ وما موقفكِ من هذه التصفية ؟ و الحال أنّ خالك هوّ الضحيّة.

ابتسمتْ بتهكّم ومرارة:
ـ ماذا لو قلتُ لكَ أنّ الذي نفّذ فعل القتل هو ابنه، (حاولتْ أنْ تمنع دموعها) نعم ابنه. لقد قالها أمام الجميع، دون حياء.
ـ وهل هذا معقول؟ ابنه ؟
ـ نعم ..(استدركت) هو لم يكن مكشوف الوجه أثناء عمليّة التصفية، لكن الذين حدّقوا في عينيه ـ وكان ملثّما ـ تأكّدوا أنها عيونه.
(صمتت برهة)
كان خالي في المقهى يلعب الورق ذات مساء شتويّ، حين دخل "حبيب" ابنه و ناداه باسمه.. حين رفع رأسه والتفت، صوّب في اتجاهه رصاصة أولى في الرأس و ثانية في

الصدر، وببرود لا مثيل له أرجع المسدس إلى جيبه وبقي يحدق في المغدور لحظات دون أن ينبس بكلمة.
وقد لاحظ الكثير من رواد المقهى دمعه ينهمر بصمت دون أن يبدي أيّ صوت، وغادر بهدوء.

و أكملتْ "لينا" تسْرد لي حال المخيّمات وأحيائها القصديريّة وشبكات الصرف الصحّيّ والأوبئة وانعدام الخدمات الصحيّة، في فلسطين كما في لبنان والأردن.
"لينا" تلك السمراء الرائعة، التقيتها صدفة مع شاعر فلسْطينيّ كان يُقيم بتونس، ويشرف على صفحة أدبيّة بصحيفة تونسيّة يوميّة.
عاد الشاعر إلى فلسطين، وتوقّفت الصحيفة عن الصدور كغيرها من الصحف التي تظهر وتختفي، ولا تقدّم شيئا.
واختفت "لينا" مع الشاعر ومع الصحيفة.
غير أنّ الصدفة عادت لتؤثث موعدا كما أثثتْه في البداية.
.....
.....
عدّلتُ أوْتار الوعْي، وأنا ما زلتُ بحانة القرصان حتّى آخر قارورة وآخر سيجارة بقيتْ في علبتي.
اِشْتدّتْ القتامة بفعل الدخان والصراخ المتشابك، وقرع الكؤوس والقوارير. اِنْتبهتُ إلى حوار يدور بقرْبي..
الأول:
ـ ثلاثة آلاف دينار.. يُمكن أنْ تُسْقط العقوبة إلى شهريْن.
الثاني:
ـ لا أصدّق..اِبني محكوم بسنتيْن.
الأول:
ـ ثمّة دولار.. يُمكن أنْ يسْقط حتّى حكم الإعدام.. أمامك أسبوع فقط.
الثاني:
ـ وما هي الضمانات ؟
الأول:
ـ هؤلاء الناس لا يقدّمون الضمانات.. ثمّ أنهم لا يسْتحقّون أموالك. فالواحد منهم يمكن أنْ يشْتري مدينتك بسكانها.
أخمدْتُ ما بقيَ من سيجارتي في المنفضة، وانْتصبْتُ في اتجاه النادل أدفع له ثمن ما شربتُ، وقد تركت الحوار متواصلا حول المبلغ المطلوب لإسْقاط عقوبة جنائيّة.
لحظتها وأنا أدفع للنادل خطرتْ لي فكرة المغادرة إلى العاصمة.. نعم إلى العاصمة، ليس الآن ولكن غدا. غدا أكون هناك فقد اشْتقت إلى الأصدقاء والرفاق والأكشاك و نهج الدباغين حيث الكتب القديمة وشارع الحبيب بورقيبة.

بإحدى المؤسسات الثقافيّة الجامعيّة، كنت داخل قاعة شاسعة للعرض، تُوشّح جدرانها رسومات "ناجي العلي"، في معرض نظّمه الاتحاد العام لطلبة تونس .
توقّفتُ عند لوحة تُجسّد عربيّا أو أعرابيّا مُتكرّشا بذات العقال البدويّ، رافعا سبّابته اليمنى مُهددا:
"لازم تعْترْفوا بإسرائيل.. وبعْدين ترْموا سلاحكم.. ثمّ إلى ربّكم تُرْجعون"
بقيتُ مُتسمّرا أمام اللوحة أبشّر حنظلة بأنّ الخطاب لا زال هوّ نفسه، وسيبْقى. بل نحن اِعْترفْنا بإسرائيل وألقيْنا سلاحنا، وإن كنا لا نملك سلاحا أصلا. ونحن في انتظار أنْ يُحْسن الله الخاتمة.
أيهما أفضل، نلقيه باختيارنا أم نُجبر على إلقائه ؟ بالطبع الخيار الأول هو الأسلم والأصحّ.
وبينما كنتُ أناجي اللوحة وأحاكيها أو أحكي لها، وإذا بـ "لينا" تقترب مني وتدسّ جسدها بين بوتقة الرؤية ولوحة ناجي العلي.
كأني أرى فلسطين تهرْول هاربة من خارطة الطريق وأوسلو وشرم الشيخ.. كأني أرى فلسطين بشالها المطرّز "كفيروز" تنْتصب بشموخ حذر.
صفعتْني المفاجأة:
ـ لينا.. ؟
ـ نعم لينا.. أنا بلحمي ودمي.
ـ لا أصدّق..
ـ ولماذا لا تصدّق؟ هل تغيّرتُ؟
ـ لا .. لا .. ولكن كلما غاب عنّي صديق فجأة، ينْتابني إحساس أنني لن أراه ثانية.
ـ دعْكَ من الترّهات.

سحبتْني من ذراعي خارج القاعة، مُحاطا بالدهشة والفجائيّة، وأكملتْ:
ـ هل نشْرب قهوة في مكان جميل؟
ـ بالطبع.. بالطبع.. من يرْفض اِسْتضافة فلسْطين إلى محرابه ؟
سرنا بهدوء، دون أنْ يكلّم أحدنا الآخر، حتى اِحْتضنتْنا مقهى باريس، في ركن أبْعد عن مدْخلها.
جلسْتُ دون أنْ أسْتنْجد ببروتوكولات اسْتضافة النساء. لم أسْحب لها الكرسيّ لتجْلس قبْلي، ولم أساعدْها على نزْع معطفها كعادة الأرسْتقراطيين، فقط اِكتفيْتُ بالجلوس.
فيما تكفّلتْ بترْتيب حقيبتها اليدويّة على ركن من الطاولة.. مدّدتْ معطفها الشتْويّ على ظهر الكرسيّ المجاور.. واحتفظتْ بشالها الفلسْطينيّ يلفّ جيدها كبحر يحتضن قمرا عند الغروب.
قالت:
ـ أريد قهوة.
أشرْتُ للنادل بيدي فأسْرع نحونا حاملا شكّه أننا عشيقان.
قلتُ له:
ـ قهوة وكأسا من البيرة.
أشار برأسه، وانصرف.

فيما تناولتْ "لينا" سيجارة أشْعلتْها، كنتُ أرتّب أفكاري لأعتذر عن البيرة.. ربما ترى" لينا" أنّ طلبي لا يحترم أصول اللياقة. غير أنها أسعفتني بالقول:
ـ كعادتك دائما..
ـ عاداتي لن تتغيّر.
ـ إذن أنتَ لن تتغيّر.
ـ (بفذلكة) إذا كنت أنا الحقيقة، فلماذا أتغيّر؟
ـ ومن قال لكَ أنّ الحقيقة لا تتغيّر؟
ـ الحقيقة ثابتة، ولكنّ المواقف تتغيّر...

وَصَل النادل ورتّب القهوة وكأس البيرة، وانصرف. وصل وقد أنقذني مـن مهاترات لن تنْتهي، ولستُ مسْتعدا للخوض فيها وأنا فـي هذا اليوم الحزين.
بادرْتها، قبل أنْ تعود لنفْس الحوار:
ـ دعكِ من الحقيقة والتغيّرات والتحوّلات.. نحن لا علاقة لنا بكل هذه المفاهيم أصلا. قولي لي، ما هي أخبارِكِ ؟ وأين أنتِ طوال هذه المدّة ؟ كيف تخْتفين وتظهرين بهذه الطريقة ؟
ـ .....

بقيتْ صامتة، لكنها تكشف عن ابتسامة ساخرة، وهي تحرّك السكّر في فنجان قهوتها. سحبتْ حقيبتها اليدويّة، وتناولتْ منها صورة مدّتْها إليّ.
كنتُ لا زلتُ قدْ تذوّقْتُ الرشفة الأولى من كأسي .. أشْعلْتُ سيجارتي وتناولتُ الصورة من أناملها.
سألتها:
ـ مَن هذه ؟
ـ حاول أنْ تعرفها.
ـ بطبيعة الحال لنْ أعرفها... هذه بلباس اِنْتحاريّة، ولا يخفى عليكِ أنْ لا علقة لنا كتونسيين بهؤلاء.
ـ تأمّل ملامح وجهها.

قرّبْتُ الصورة أكثر، ورحْتُ أفتّش في كلّ الصور التي تحفظها الذاكرة.
كانت سيدة في الثلاثين من عمرها تقريبا أو يزيد بقليل، ترتدي لباسا أسود وخمارا يغطّي رأسها، وبين يديها ورقة تتلوها أو تنشدها.. كانت تلفّ حول خصرها حزاما ناسفا، فهمت وفق كلّ التفاصيل أنها انتحاريّة .. نعم انتحاريّة تقرأ وصيّتها، هكذا كما عوّدتنا الحركات الجهاديّة، وقد دار حوار بيني وبين نفسي، هل هذه المرأة ستنفّذ العمليّة بلباسها الفضفاض، أم بلباس آخر. وقد دخلت بوتقة التفكير مشهد امرأة تنفّذ عمليّة انتحارية بلباس "بيكيني" على شاطئ مزدحم بالمصطافين من عرب وأجانب.
فجأة، توقّفتُ عند الحدقات الملأى بالحزن والاِنْكسار والقتامة. لكنني حين تأمّلتُ جيّدا، رأيتُ التحدّي ينْبتُ في ترْبة الحزن.
قلتُ لــ " لينا "، ولم أرْفع بصري عن الصورة:
ـ رأيْتُ هذه العيون.. نعم رأيتها.. أين.. أين ؟؟؟ لا أعرف أين.. أنا متأكد أنني رأيْتها.

ـ (وهي تشْرب قهوتها بهدوء) حاول أنْ تعرف.. إنْ كنتَ متأكدا.

رفعْتُ بصري إلى "لينا".. تسمّرتْ عيوني في ملامحها، وعدْتُ مسْرعا ببصري إلى الصورة.. ثمّ إلى عيونها..
وكأني اِكتشفْتُ قانون الجاذبيّة مرّة أخرى. وهممْتُ بالكلام، لكنّ " لينا "سبقتْني:
ـ إنها أختي.. ماجدة .

شعرْتُ أنني دخلْتُ في بوتقة من الفوضى والارْتباك، ولم أفهم أيّ معنى لهذه الصورة.. هل هي صورة عاديّة، أم ... وقلتُ:
ـ لينا.. وضّحي لي المسْألة.. لم أفهم .
(وهي تحاول دون جدوى منع دموعها من التدحرج إلى خدّها البرتقاليّ)
أشْعلتْ سيجارة بغضب حاولتْ أنْ تُخفيه وقالتْ:
ـ هل نُغادر؟
ـ ما زلنا لم نتحدّثْ بعد.. ثمّ إلى أين؟ أنا جئتُ إلى العاصمة في زيارة خاطفة، وسأعود إلى مدينتي في نفس اليوم.
ـ أحتاجكَ الليلة.. أريدك بجانبي كامل هذا اليوم.. أنا في حالة نفسيّة يُرْثى لها، وأحتاج صديقا بجانبي.
لا يمكنني أن أبيت هذه الليلة وحيدة.
ـ وهل تقطنين بمفْردكِ؟
ـ صديقتي الفلسطينيّة في تربّص، وقد تغيب لمدّة ثلاثة أيام.
ـ كما تشائين.
لم يكن بإمكاني أنْ أرْفض طلبها.. كنتُ مُوقنا أنني لو رفضتُ لانفجرت بالبكاء.. أو فقدتْ وعْيها.. ربما تُقْدم على الانتحار.
كانت وهي تلْتمس بقائي معها، كنبْتة عبّاد الشمس تلْتمس بزوغ الشمس.. كنورس يلتمس اِنْفراج الأشْرعة للريح، ليكتمل المشْهد.
هيّ كعادتها دائما حساسة جدا وسريعة البكاء، ولا تتحمل أصغر المواقف المحرجة أو الاستفزازية، فما بالك وهي تحكي عن أختها التي ـ ووفق تخميني ـ ستنفذ عمليّة انتحارية أو ربما أقدمت عليها.
في المرات القليلة التي جالستها فيها، يسهل عليّ أن أنتبه لرقتها وبساطتها وقدرتها على أنْ تبسّط المواضيع الأكثر تعقيدا بلغة بسيطة جدا.
كنت دائما أتساءل في سرّي عن العلاقة التي تجمع بساطة منطقها بتعقيد قضيّتها.
" لينا " لا تحتاج فلسفة التنوير ولا أدبيات الشعراء والفلاسفة ولا قرارات الأمم المتحدة وترهات الجامعة العربية والرؤساء والزعماء.. هي لا تحتاج إلى أيّ من هؤلاء لتتحدّث عن الإرهاب أو العدالة أو الجوع الفلسطينيّ..
وتراها ـ مع ذلك ـ مُقتنعة بذلك الأسلوب البسيط ... غير أنها إذا جُرحتْ تصبح قادرة حتّى على اسْتعمال كرسيّ المقهى لتؤدب الآخر أو توقفه عند حدّه.

وكنتُ شاهدا على موقف مماثل في لقاء سابق معها يصحبنا رسام فلسطينيّ مقيم في تونس، حين حاول طالب ينتمي لحركة فتح أنْ يدفعها لتغيير مقرّ سكناها والابتعاد عن صديقتها التي يُشاع أنها تنتمي لحركة حماس.
وحين اشْتدّ الحوار بينهما، ونحن نجلس على الكراسي الإسمنتية بالمركز الثقافي الجامعي حاولتْ أنْ تضربه بمحفظة أحد الطلبة، لكنه تمكّن من أنْ يمسك بيدها ويمنعها من إصابته، فتناولت كأس الشاي الذي أمامي وألقته في وجهه بعنف لا مثيل له.
تدخّل الطلبة لتهدئة الخواطر، فيما أمسكتُ لينا وأبعدتها عن المكان كي تهدأ قليلا.
طبيعتها المزاجيّة، تدفعها لأنْ تغضب بسرعة وعنف، وتهدأ بسرعة أيضا كموجة ساكنة آخر ليل صيفيّ.

الفصل الثاني

من بغداد إلى دمشق

بعْد تجربة السجْن، تسلل أبو مصْعب عبر الحدود إلى سوريّة. وانْضمّ هناك إلى مجموعة جهاديّة تقود المقاومة من دمشْق.
وفي مقهى بمنطقة "المزّة"، كان يُجالس أبو وليد المصري مُنْتبها إلى تحْليلاته ومواقفه من الوضع الميْداني في العراق، وجغرافيّة التحرّكات العسكريّة وأولويات المرحلة وخطورتها.
لا زال أبو وليد المصري ينبّه:
ـ سنتْرك بعقوبة وبغداد إلى مرحلة أخرى.. الآن سنوجّه أسلحتنا إلى الشمال الكرديّ، حيث بدأتْ تظهر بوادر سيْطرة الأكراد على مدّخرات البلاد. وهذا سيدعّم مفهوم الفيدراليّة.
طبعا تُدْرك أنّ هذا التقْسيم شيعيّ ـ سنّيّ ـ كرديّ، سيفتّت الوطن ويجعله لقمة سائغة في فم المخططات الصهيونيّة والأمريكيّة، إضافة إلى أنّ هذا التوجه، سيُدخل البلاد في دوامة من العنف والحرب الأهليّة التي ستأتي على الأخضر واليابس.
ـ ما المطلوب عمليّا؟
ـ بعض أصدقائنا الخلّص من قرية "شيخ الحديد" السوريّة التابعة لقضاء "عفرين"، سيصلون بعد يوميْن، وهم الذين سيتكفّلون بإدخالك إلى العراق عبر الحدود.
لا تخفْ.. الأوضاع مرتّبة على أحسن ما يرام.
ـ وبعد..؟
ـ وبعد.. المهمّ الآن وقبل اِجتيازك للحدود، عليك بالحيطة والاِنتباه. المنطقة تعجّ بالمُخبرين والمخابرات السوريّة. وحتى أعين الحكومة العراقيّة التي ترْصد تحركات المقاومة في دمشْق، كما في عدّة عواصم عربيّة أخرى حيث تكثر الجالية العراقيّة...
حاول ما اسْتطعْت أنْ لا تحْتكّ بأحد، حتّى العراقيين الذين تُصادفهم.. مفهوم ؟ هذا أمْر.
(وزّع بصره على الشارع بحذر)
وبعد دخولك للعراق، تلْتحق بمدينة الموصل شمالا. وهنا ينْتهي دوري.
ـ وبعد..؟
ماذا سأفعل في الموصل؟ بمن سأتّصل؟
ـ أنا ينْتهي دوري هنا.. الرفاق الذين سيقودونك إلى الحدود، سيفسّرون لك المهمّة، وسيمدّونك ببقيّة المعلومات عن رفاقنا هناك.

أكمل ما بقيَ من "يانسون" بكأسه، وهو يوزّع بصره على المارة والجدران والسيارات، بارْتباك لا مثيل له.
وأكمل:
ـ تُدْرك أنّ الوضع الآن أكثر خطورة من قبل. كلما تأخّرنا يوما، اِزْدادتْ أقدام العدوّ ثباتا، وكثرتْ الأعين والجواسيس، وأصبحنا أكثر عُرضة للمُلاحقة والتصْفية.
ـ أعتقد يا أبا وليد، أنّ المقاومة اِزدادتْ صلابة..
ـ (قاطعني) هذا صحيح.. لكنّ الخلايا والتنْظيمات تضاعفتْ عشرات المرات. حتّى أصبح من غير الممكن معْرفتها وحصْرها، فما بالك بانْتماءاتها وإيديولوجياتها. حتى أنّ بعض

التنْظيمات أسّستْها أطراف في الحكومة العراقيّة لاستقطاب المقاومين، بغرض اِسْتيعابهم وكشْفهم، واَسْتعمالهم لأغراض سياسيّة أو تصْفية خصومهم.
أحذّرك مرّة أخرى.. حاول ما اسْتطعْت التقيّد بالأوامر والتوجهات، ولا تحاول الاجتهاد..
أنت تعرف القاعدة: من يخطئ أوّل مرّة، قد يكون أخطأ المرّة الأخيرة.
- بحول الله ستكون الأمور بخير.
- عليّ بالانصراف.. وعليك باْنْتظار التعليمات.

وقف أبو الوليد، وقد مسح الشارع ببصره.. ثمّ اِنْصرف، وقد ذاب في الطريق الممتدّ.
اِنْتصبْتُ.. و لسْتُ مُطالبا بالانتباه، كوني لا أعرف الفرْق بين المواطنين والمُخبرين والجواسيس.
كدْتُ أقتنع أنْ لا أحد يعرفني هنا، غير أنّ تحذيرات أبي الوليد جعلتْني أشكّ في كلّ النظرات والوجوه والأشْخاص.
كلّ سيارة تتوقّف أو تمرّ، أخالها تُراقبني.. كلّ من ينظر نحوي، أشكّ في نزاهته.. كلّ من يمْشي خلفي، أتصوّر أنه يتْبعني.. حتى بتّ أخاف من ظلي...
دخلْتُ شقّتي المُجهّزة بأثاث قديم متواضع، حضّرها لي أبو وليد المصري. مُتسائلا بيني وبين نفسي، عن أهميّة "المزّة" ولماذا هذا الحيّ تحديدا؟
شقّة بحيّ عتق تعبق برائحة التاريخ والرطوبة.. حين دخلتها صفعتني رائحة التربة والطحلب العالق بالسقف والجدران. حتّى اسْتحال اللون الأبيض إلى رماديّ مزجته الرطوبة بالأخضر العابق بالتاريخ.
أَلْقيْتُ بجسدي المُنْهك على سرير مُتهالك، يئنّ من وطأة الزمن والصدأ.
فيما لمحْتُ جهاز راديو ومجلّة "نيوزويك" بالغة العربيّة.. شغّلت الراديو على الإذاعة السوريّة، وهي تبثّ تهاليل السياسيين والمثقّفين بالنصْر الذي حقّقه حزب الله في الجنوب على الإسرائيليين.
وأثنوا على الدور السوريّ حكومة وشعبا في دعم المقاومة والوقوف مع الحقوق العربيّة وقضاياها.
بقيتُ مُنْتبها إلى جعجعاتهم، حتى أطلّتْ مذيعة بصوتها الأنثويّ، مُقْترحة على المسْتمعين الأحرار أغنية للسيّدة "فيروز":

بحبّكْ يا لبنان يـــــا وطني بحبّكْ
بشمالك بجنوبك بسهْلك بحبّكْ
بتسْألْ شوبني وشو اللي ما بني
بحبّك يا لبنان يا وطني

كانت روحي تُحلّق مع صوت سيّدة الشرق، وعيوني تسْرح في عناوين مجلة "النيوزويك"، حول العراق والفياغرا والفياتنام.
المضحك، وأنا أسْتعدّ لرحلة في المجهول، بين الحرب والتقتيل والتشْريد.. تراني أقرأ دراسة عن إنقاذ الحيوانات بواسطة والفياغرا.

وللمرّة الأولى، أنتبه إلى مسْألة غاية في الخطورة والأهميّة، وربما هيّ كذلك. وربما رغبتي في النقمة واسْتحضار ما حصل لي في سجن أبو غريب مع المجنّدات الأمريكيات، هوّ الذي دفعني للاعتقاد في ذلك.
بنفْس الدراسة عن الرجولة والفياغرا، يقول كاتب أمريكيّ:
"إنّ نصْف الرجال الأمريكيين، من فئة أعمار الأربعين إلى السبْعين عاما، يُعانون درجة ما من الضعف الجنْسيّ"
أولاد القحبة.. كلّ هذا التدْمير والخراب والفوضى في أوطاننا، لأنهم أقلّ قدرة جنْسيّة منّا..
اِعْتذرْتُ عن الموقف، مُغيّرا وجهي جهة إطار قرب النافذة يحتفظ بصورة قديمة لشخص عربيّ لم أتعرّفْه. لكنني خمّنْتُ أنه صاحب المنزل أو ربما شخصيّة أدبيّة أو فنيّة...
فلو كانت شخصيّة سياسيّة، لعرفْتها على الفور، ولماذا لا أعرفها ؟ فشخصياتنا السياسيّة تُعدّ على أصابع اليد الواحدة .. كلّ دولنا حكمها حاكم أو اثنان منذ اِسْتقلالها . فيما لا يزال الراديو يُذيع ترهات حزب البعث، وإنجازات القائد الفذّ .. شعرْتُ بالجوع. فاتّجهْتُ نحو المطبخ، وهو عبارة عن غرفة ضيّقة، تتوفّر على بعض الأواني المعلّقة والمرْصوفة على الأرض.
وثلاجة ضخمة لا علاقة لها بالمكان.
هذا البيت العتيق الآيل للسقوط، ما كان يخطر ببالي أنّ أجد به ثلاجة أو أيّ نوع من الأثاث الإلكترونيّ.
.. فتحتها، فكانت محْشوّة بكل أنواع الغلال والفواكه والبيض. خمّنْتُ أنها من ترْتيب أبي الوليد.
كانت الساعة حينها، قد قاربتْ على الثامنة ليلا، وبدأ الظلام يمدّ أذرعه على المنطقة . فيما شرع النوم يُغازل أطرافي ويأخذني التعب إلى الخلود.. تمدّدْتُ على السرير مُنْهكا أُكمل قضم تفاحة لا زالتْ بين أصابعي، ولا زال الراديو يتحدّث عن الإنجازات.. فكدْتُ أختنق من الكذب والنفاق. وكأنّ القناة السوريّة هيّ نفسها العراقيّة أيام الحاكم المخلوع.. هيّ نفسها مع حكامنا العرب أجمعين.
غيّرتُ الموجة في اتّجاه القاهرة، فاعْترضتْني المذيعة بصوت مصريّ مائع، يُخبر المُسْتمعين الكرام أنّ موعدهم الليلة كالعادة مع كوكب الشرق في أغنية "إنت عمري".
يـــاااا ه .. كلّ حروبنا وهزائمنا كانت هذه السيّدة شاهدة عليها، وساهمتْ بنفْسها في تعاستنا وتخديرنا.
يـــاااا ه .. لا زلتُ أذكر كيف كان الكثير من العراقيين يربطون هزيمة الجيوش العربيّة بكوكب الشرْق. وأنها حينما كانت تغنّي، يغيب الناس والساسة والجنود عن وعيهم، فيما كانت القوات الإسرائيليّة تُعْمل فينا معاولها وفؤوسها.
حتّى أنّ جنرالا في الجيش العراقيّ السابق، كان يُقْسم بشرفه أنه لو كان مصْريا لطالب بمحاكمة السيّدة أمّ كلثوم. ولو بقي هذا الجنرال حيّا لعرف أنّ هزائمنا ما زالت متواصلة ودون أم كلثوم..
انتهتْ حروبنا، وبقيتْ كوكب الشرق.. انتهتْ حروبنا، وبقي حكامنا.. اِنْتهت حروبنا، ونحن بخير..

لغّ السيّد القابع في الإطار القديم المُعلّق جهة النافذة:
ـ ومن قال لك إنّ حروبنا انتهتْ ؟
اِرْتعدتْ فرائسي، وانتفضْتُ كطائر الفينيق مُجيبا:
ـ أقصد الحروب القديمة.. بعض الحروب العربيّة مع أعدائنا اليهود.
ـ (مزمجرا) ليست هناك حروب قديمة.. حروبكم جديدة ومتجدّدة.
كيف ستدخل محاربا إلى العراق، وأنتَ لا تعرف لمنْ ستوجّه سلاحك، ومن هوّ عدوّك؟
ـ سلاحي أوجّهه للعدوّ.
ـ (زمجر وصاح هائجا، مُلوّحا بعصاه يضرب بها على الجدار)
أيّ عدوّ ؟ وهل تعرف كم عدد أعدائك ؟ وهل أنتَ عدوّ غيرك أم عدوّ نفسك ؟

وشرع يضرب الحائط غاضبا.. ضربا متتاليا كطرق الباب.
صارت الطّرقات متتالية وعنيفة، حتى اختفى وجهه وعصاه، وصرتُ أسمع طرْق الباب بوضوح.. باب الشقّة.
اِنْتفضْتُ كعقرب حرّكوا بيتها، وكنتُ ممدّدا بملابسي.. رفعْتُ بصري جهة الإطار فـإذا الشيخ لا يزال فـي مكانه، والراديو لا يـزال يُذيع أغنية "إنت عمري".
فكّرتُ لحظتها في الخطر الداهم .. لا أحد يعرفني هنا.
إذن من الطارق؟ البوليس السياسيّ ؟ الجواسيس؟ أم...؟
فكّرْتُ في الهروب، لكن إلى أين ؟ ومن أين المفرّ؟
.. الطرق لا يزال متواصلا..
هل يكون أحد رفاقنا من "شيخ الحديد"؟
لكنّ أبا الوليد قال إنهم سيأتون بعد يومين.
ما المسألة إذن؟
من الطارق في هذا الوقت المُتأخّر ؟
ـ من الطارق؟
قلتها بصوت مُرتفع، ملء الارتباك والريبة والخوف.
ـ .....
(لم يُجب، وعاود الطرق بأكثر عنف)
ـ (قرّبْتُ حواسي أكثر للباب) من الطارق ؟
ـ (بهمس) إيراد الحاج... الصحفي إيراد الحاج.
ـ إيراد الحا... آه... إيراد الحاج... حالا.

فتحْتُ الباب وقد أقصيْتُ الشكّ والريبة، دون أنْ أنتبه إلى كونه ـ ربما ـ ينتمي إلى المخابرات السوريّة أو إحدى العيون المبثوثة في شوارع دمشْق. فقد كان يعمل في العراق، ولعلّ ذلك يُسهّل تجنيده، أو اِسْتقطابه. فالمال لوحْده كفيل ببيع الذمم.
فتحتُ الباب، فارتمى إيراد دون اِنتباه وأوصد الباب بسرعة وريبة.. رفع غطاءً كان يلفّ به وجهه، وارْتمى في عنقي مُقبّلا، كغريق صادف زورقا، وقال:
ـ أعذرْني على هذا الاِرتباك.. الأمور لم تكن مُرتّبة كما ينْبغي.. في نفس الوقت كان من الضروري أنْ ألتقيك. المسْألة على غاية من الخطورة. أيّ تأخير قد يتسبّب في كارثة.

ـ هل ثمّة من يُراقبكَ؟
ـ لا .. لا تخف الأمور ستكون جيّدة إذا أسرعنا في التحرّك.
اِتّجه داخل الغرفة، وجلس على طرف السرير.. فتح أزرار معطفه، كأنه يهرب من الإختناق، وأكمل:
ـ أسْكتْ صوت الراديو، واسْتمع إلى ما سأقول.
اِتّجهْتُ نحو الراديو أُخمد أنْفاسه، وعلّقْتُ وأنا أتناول سيجارة لأشْعلها:
ـ جعلْتني أشْعر بالخوف والارتباك.
ـ لا بدّ أنْ تُغادر هذا المكان فورا، وقبل الصباح.
ـ(اِبْتسمْتُ بمرارة) أغادر المكان؟
إلى أين ؟ كيف أغادر المكان ؟ تعليمات أبي الوليد الـ ..
(وتراجعْتُ عنْ إتْمام اسمه حيطة لا غير)
ـ أبو الوليد المصري.. أليس كذلك ؟
ـ وهو كذلك.. وكيف عرفْتَ؟
ـ لا يهم .. الأهمّ من ذلك أنّ أبو الوليد وقع في أيدي القوات السوريّة، كذلك مجموعته في قرية " شيخ الحديد " وسيقع إيقاف بقيّة المجموعة.
لا بدّ من المُغادرة..
ـ (داهمني الغثيان، ودارتْ رأسي حتى خلْتها سقطتْ حذْو حذائي، وألقيتُ بجسدي على حافة السرير بجانب إيراد)
كيف يتمّ ذلك؟ أبو الوليد كان معي منْذ ساعات.. كيف يحدث كلّ هذا في وقت قصير؟ وبمثل هذه الغرابة ؟
ـ كلّ أسْئلتك ليستْ مهمّة الآن.. المهم أنْ نُغادر هذا المكان. وفور وصولنا برّ الأمان سنتحدّث في كلّ التفاصيل.
ـ لكن...
ـ دون لكنْ .. لم يعد بالإمكان أنْ نُضيّع الوقت أكثرْ.

بأسرع من إطلاقة رصاصة، جمعْتُ أغراضي في حقيبة صغيرة.. رتّبْتها على كتفي، وانْتصبْتُ جاهزا للمغادرة. فيما رتّب إيراد وجهه، وخرجْنا مُسْرعين دون أنْ نُحكم غلق الباب.
وأنا أركب سيارة فلاحيّة في اتّجاه الضاحية الجنوبيّة للعاصمة دمشْق، كنت اسْترْجع شريط وصول إيراد الحاج إلى غرفتي.
كأنّ الوعْي حضر اللحظة، بعْد أنْ حاصرتْني الغيبوبة حين وصل وفتحْتُ له الباب.
ما راعني حقّا أنني تعقّلْتُ اسمه بسرْعة لم أعْهدْها أنا الإنسان المورّط في النسْيان.. في إتلاف الأسماء والأشياء.
عرفْته في بغداد حين أجرى معي تحقيقا عن ظروف اعْتقالي بسجن "أبو غريب". بعد أنْ رتّبت مجموعة من المقاومين اللقاء بسرّية تامة. هذا بغرض كشف الممارسات الأمريكيّة بذاك الماخور الذي يسمّى سجْنا.

وإنْ كان لقائي به لمْ يتجاوز الساعة ـ سردْتُ له فيها بقيء لا مثيل له ما حصل لي بين تلك الجدران المُحاطة بالخنازير ـ إلا أني لم أتوقّع أنْ ألتقيه ثانية لا في بغداد ولا في أيّ مكان آخر.
بعد سنوات من السجن و التعذيب.. تعذيب العراقيين لإخوانهم وذلّ الأمريكيين لأعدائهم، ألقي بي في أطراف مدينة بغداد، بعد أن فقدت الوعي لمدّة فاقت الساعة. وخوفا ـ ربما ـ من وفاتي في السجن بعد تسرّب صور بواسطة الهواتف المحمولة من داخل السجن، وخوفا من تضاعف الأصوات المنددة بالتعذيب و الإهانة و المذلة.
لم تكف سنة كاملة من الاعتكاف في غرفتي ألملم جراحي المبعثرة.. لم تكف لتزيل و لو لحظة واحدة من تلك المعاناة الأشبه بصدأ على واجهة مرآة قديمة.
وفي بيت أحد الحقوقيين الذين ذاقوا ذرعا بطغيان حكم صدام حسين، التقيت بإيراد الحاج، وسكبتُ له ما ترسّب في جهة الروح المشروخة من آلام و جراح لم تندمل إلى الآن.
ولولا علمي أنّ الصحافيّ ليس عراقيا، لرفضتُ الحوار، لأنّ مليشيات الأحزاب قادرة على تصفية الخصوم وكلّ من يشكّك في عمليّة الانتقال الديمقراطيّ في العراق.
إنه إيراد الصحفي السوري العامل بصحيفة البعث السوريّة.. ها أنه يحضر الآن، نعم ميّزته من كلّ الشخوص المبعثرة في ذاكرتي المثقوبة.
فلماذا يحْضر الآن ؟ وكيْف اسْتحضرْتُ اسْمه وميّزته من بين كلّ الأسماء والأشياء ؟
ولماذا هو الآن هنا؟ هل هو عراقيّ بجنسيّة سوريّة ؟ أم هو سوري ّبانْتماء عربيّ ؟
جالت بخاطري ملايين الأسئلة الحيْرى، ولم أجدْ تفْسيرا لها.. لا إجابة.. مع ذلك لم ألق أمامه حيْرتي في انتظار ما سينْكشف لاحقا.

الفصل الثالث

دموع البرتقال الفلسطيني

بغرفتها الموشّاة بأعلام فلسطين، وخرائط التقسيم وصور القسّام وعبد الناصر ودرويش وجيفارا، وبيان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.. بغرفتها تلك ـ وكانت لا تزال بلباسها الرجاليّ، وشالها الفلسطينيّ ـ تتحرّك مُرْتبكة.
قدّمتْ لي قهوة، وهي تفكّ ضفيرتها وتسْحب الشال من جيدها لتلْقيه بإهمال على السرير، وهي تقول:
ـ دقيقة لأغيّر ملابسي.
وانْصرفتْ..
تناولْتُ علبة السجائر.. أشْعلتُ واحدة، واَنْتصبْتُ ماسكا فنجان القهوة في اتّجاه المادة الأولى من الإعلان المُعلّق:
"يولد جميع الناس أحرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق (..)"
ضحكتُ.. ثمّ أخْمدتُ ضحكتي لأحوّلها إلى سخرية صامتة بيني وبين نفسي. لم أفهم" الكرامة والحقوق" ولم أفهم " لكلّ فرد الحقّ في الحياة".. وسخرتُ من الإعلان، بدءا بديباجته وصولا إلى آخر مادة فيه، وارْتميْتُ على السرير.
دخلتْ "لينا" تسْبقها سيجارتها المُشْتعلة، ولباسها المُغْري يكشف كامل تفاصيل جسدها.
اِرْتمتْ بجانبي.. قرّبْتُ إليها المنْفضة قليلا، وتناولتْ فنجان قهوتي مطأطئة بصمْت، فيما توشك سيجارتها أنْ تنْفجر.
قلتُ:
ـ لماذا كلّ هذا الحزْن؟ ما المشكلة؟ وما حكاية الصورة التي أريتني إياها في مقهى باريس؟
ـ حكيْتُ لك قصّة عائلتي في مناسبة فارطة؟
ـ أذكر ذلك في مناسبة بعيدة.
ـ .. وتعْلم أنّ أختي القاطنة مع أمي في منزل جدّتي، هيّ مـن تبقّى من العائلة. وطبعا أنا وشقيقي النازل ضيفا على السجون الإسرائيليّة.
ـ أذكر ذلك أيضا... وبعد؟
ـ ألم تفهم؟
ـ في الحقيقة.. في الحقيقة، لم أفهم قصدكِ.
ـ (اِبتسمتْ بسخرية، وهي تدسّ أنف سيجارتها في المنفضة)
أختي "ماجدة" اِنضمّتْ إلى حركة الجهاد الإسلامي، ونفّذتْ عمليّة اِنتحاريّة في حيّ تجاري.
ـ وكيف تفعل ذلك ؟ لماذا هذه الرغبة المُفرطة في الاِنتحار؟
ـ وهل تُسمّي العمليات الجهاديّة اِنتحارا؟
ـ بطبيعة الحال...(تداركتُ) في حالات دون غيرها.
ـ (بغضب) وما هذه الحالات ؟
ـ العمليات التي لا تُقدّم شيئا لحركة النضال الوطني والإنساني، أعتبرها اِنْتحارا.
ـ المؤسف أنّ العمليّة لمْ تُسْفر إلا عن جرح ثلاثة مواطنين إسرائيليين.
(وتداركتْ بمعنويات مُرتفعة) لكنّ النتائج المعنويّة والسياسيّة، أكبر من ذلك بكثير.

ـ أيّ نتائج ؟ (قلتها بسخرية)
هل هيّ ما نتج عن اِتّفاقيات أوسلو؟ أم شرم الشيخ ؟ أم خارطة الطريق؟ أم تكرّش القادة الفلسطينيين، واسْتئثارهم بالثروة، على حساب المواطنين الأبرياء والعاطلين والمُشرّدين؟
هل هذه نتائج ؟
ـ نحن لا يهمنا الأوغاد، ولا السياسيين.. فقط، تهمّنا القضيّة و الإنسان الفلسْطيني.

غطّتْ وجهها بكفّيها، وانْخرطتْ في هسْتيريا من البكاء. فيما بقيتُ جامدا، وقد خانتْني الكلمات واللغة والقواميس.. لم أجدْ فاتحة للكلام، ولا بما أوشّح هذا المشْهد الدراميّ.
لا أعتقد أنّ أيّ لغة بإمكانها تشْخيص المشْهد أو رصده، ولا أيّ شاعر ولا أيّ كاتب. فقط، ربما الصمتُ خير مُعبّر عمّا أعيشه.
مددْتُ ذراعي اليسْرى لأحتضنها، فطاوعتْني ودسّتْ رأسها في صدْري.
كمنْ يحتضن الخارطة ويحْتضن الشرْق، كنتُ أتحسّس أصابعي مخافة أنْ تحْترق. فيما لا تزال" لينا " تتْرك العنان لدمعها كيْ ينْهمر، ويسْقي تُربة جسدي.
لنْ يُنْبت جسدي غير العرَق .. لنْ يُثمر البرتقال الفلسطينيّ ولا رمّانه.. ولن تخْرج من مسام الجلد أيادي لحمل السلاح أو حمل الحجر..
هذا الجسد العربيّ المُلقى حذوكِ، ليس شيئا آخر غير طينة "أفسق فيها الوعْي سنينا" وباتَ كمرْكب حطّمتْه رياح الهبوب..
إذن، اِنتفضي لوحْدكِ أيتها النجمة، وأضيئي حيث ما شئتِ، واَتْركيني ألوك هزائمي واَنْكساراتي وعجْزي.. ما أعظم قدراتنا الجنْسيّة، وما أرخص وعْينا وهممنا.
أخيرا، حرّكتْ جسدها ودسّتْ أصابعها في وجهها تمْسح دمْعها.. رفعتْ رأسها، فاسْتحال وجهها بريقا من الدمْع والتورّد والخوف.
لا تفْصل شفاهنا عنْ بعْضها، غير إطلالة فراشة هاربة من الضوء.. قرّبْنا شوقنا أكثر، وذبْنا في ملكوت الرّغبة، فيما كانتْ يدي تفكّ أزرار تبّانها.
غيْر أنّ اِرْتماء بصري على الخرائط المعلّقة على الحائط، جعلني أتراجع مُرْتبكا، في اِتّجاه سيجارتي علّها تحميني من اللّحظة السّاخنة..
سحبتْ "لينا" جسدها ونهضتْ في اِتّجاه أشْرطة الكاسات، مُحاولة تغْيير الجوّ الخانق، وهْي تشغّل آلة التسْجيل:
ـ سأسْمعكَ أغنية من التراث الفلسْطينيّ.
ـ كيف حصلتِ على صورة " ماجدة " ؟
ـ (ردّتْ باقْتضاب) من الأنترنات.
ـ (باسْتغراب) من تونس دخلْتِ إلى تلك المواقع؟
ـ بالطبع...
ـ لا أصدّق
ـ ولماذا؟
ـ هذه مواقع لا يُمْكن النفاذ إليها.. إنها مواقع إرهابيّة ..
ـ دعْكَ من الخزعْبلات.. لنْ يحْصل لي أكثر مما حصل. المهمّ.. اِنْزع عنكَ غرورَكَ قليلا، وادْخل معي للمطبخ لنجهّز العشاء.. يكْفينا بكاء وشهداء.
ـ (قلتُ مُتهكّما) وهل تُحْسنين الطبخ ؟

ـ جرّبْ، وسترى.. وتماديا في التنْكيل بكَ، سأطبخ لكَ أكلة فلسْطينيّة، كانتْ أختي ماجدة تعْشقها إلى حدّ الجنون.

انتصبت واقفا في اتّجاه أشْرطة الكاسات، أختار واحدة تساعد على الخروج من هذا الجوّ التعيس. وتعمّدْتُ سحب الشريط الذي وضعتْه "لينا"، لكنها لم تُعلّق.
قلتُ:
ـ نختار الموسيقى أوّلا ثمّ ألتحق بكِ.
كانتْ أشياء كثيرة أمامي، غير أنيِ فضّلْتُ " سيلين ديون " للخروج من الجوّ العربيّ المليء بالأحزان والنّقمة. فصدحتْ تلك السويسريّة الرائعة:

J'ai compris tout les mots, j'ai bien compris merci
Raisonnable et nouveau, c'est ainsi par ici
Que les choses ont changé que les fleurs ont fané
Que le temps d'avant, c'était le temps d'avant
……..
Pour que tu m'aimes encore

بصوْت أقرب لانْسياب الضباب فوق "فينيس" أو "لندن" ... أو بانْسياب، كدخول الشمس إلى بوتقة مُظلمة.
فيما كنتُ أساعدها على غسل الأواني لتجهيز العشاء، كانت لينا قد دخلتْ في جوّ مختلف عما كانت فيه من الحزن والخوف والريبة، وكأنّ أغاني "سيلين ديون" قد فتحتْ لها في الآفاق وفي المطلق نوافذ على الأمل والمسْتقبل.
كانت تسْرد لي قصّة عائلتها بابتسامة، أنا الوحيد الذي يعرف ماذا تخفيه:
ـ حين تمّت تصفية والدي في لبنان بقلعة الشقيف، كنت لا زلتُ صغيرة جدا لا أفقه في السياسة والأحزاب والثورة عدا عائلتي الصغيرة في منزلنا القديم بحيّ عربيّ نزح أكثر من نصف سكانه تحت تهديدات الصهاينة واعتداءات المستوطنين اليهود.
ذات عيد توجهت أنا وأمي ولأختي ماجدة إلى المقبرة حيث ندفن كل أهالنا وأقاربنا. وكانت الزيارة للترحم على بعض الشهداء من العائلة الموسّعة.
أذكر وأنا في عمر لا يتجاوز الثانية عشر ربيعا، سألتُ أمي عن قبر والدي.
صمتت أمي برهة قصيرة، وطأطأت وهي جالسة حذو قبر أحد الأقارب، وأحسستُ أنها ترغب في البكاء، لكنّ دموعها ما طاوعتها ربما من فرط ما ذرفتْ.
علمتُ منها حينها أنّ والدي دُفن في لبنان على أيدي أحد التنظيمات اليساريّة في مدينة صيدا. ولا أحد من عائلتي يعرف ضريحه غير رفيقه أبو الفتح الذي عاد إلى غزّة بعد اتفاقيّة أوسلو وقدْ طلّق العمل السياسي إلى الأبد.

تدخلتُ حينها، وقد توقّفتُ عن إكمال غسل الصحون:
ـ كيف يمكن لمناضل أنْ يتوقّف فجأة عن النضال والعمل التنظيمي؟

- (وضعتْ لينا السكين الذي بيدها على فخذها الأيمن) قطعتْ رجله وأصيب في الأخرى التي فقدتْ قدرتها عل الحركة. وقد حكى لي أبو الفتح أنه أصيب في انفجار سيارة مفخخة كانت تسْتهدف أحد القادة الفلسطينيين.
وهو الآن مُقعد يتنقل على عجلات. هذا إضافة إلى أنّ أغلب رفاقه وقع تصفيتهم، وظلّ البقيّة يرفضون دخول فلسطين ما دامت تحت الاحتلال.
(بقيت صامتة بعض الوقت وهي تعالج ورقات من البقدونس، وحين أكملتْها التفتت إليّ مكملة كلامها)
- ألم تكمل غسل الصحون؟
- بلى أكملتها.
- إذن...
- (قاطعتها وكأنني أقصدها بالكلام)
لا أفهم كيف تسْتقيم الحياة في ظلّ كل هذا البؤس وهذه الأحزان، ولا أفهم كيف..
- (قاطعتني بدورها لتجيب عن تساؤلي أو ربما لتسْخر مني) أنا لم أخبرك عن منزلنا الذي فجّروه بما فيه، بعد أنْ سمحوا لنا بجهد جهيد أنْ نُخرج ما خفّ وزنه في عشر دقائق فقط.
(وقد حاولتْ أنْ تمنع دمعة تدحرجتْ على خدّها) حاول أنْ تتخيّل كيف يفقد الإنسان بيته في رمشة عين.. يفقد المكان الذي ولد فيه والذي رتّب فيه أشْياءه وأحلامه وذكرياته مع الغرف والجدران ودالية العنب والشبابيك وسطح المنزل الذي يشرف على حقول الزيتون التي فعلتْ فيها الجرافات ما فعلتْ وحوّلتها إلى أرض بور.
هكذا في لحظات تُجبَر على أنْ تقتلع ذاكرتك من مكانها عنوة. وكان لا بدّ في مساحة العشر دقائق أنْ أنقذ صورة والدي والقائد ياسر عرفات..
- (تساءلتُ بدهشة) ياسر عرفات؟؟؟
- نعم..
- أنا أعرف أنكِ لا تنتمين لحركة فتح.
- ولو.. ياسر عرفات يبقى قائدا وزعيما رغم الأخطاء. وها قد ذهب ياسر عرفات، ورأى العالم أيّ دور كان يلعبه حتّى وهو تحت الحصار تطوّقه المدفعيّة الإسرائيلية.
(صمتت برهة) لذلك ترى أنّ كلّ الفصائل الفلسطينية تحترمه حتّى وهي تختلف معه.

أكملْنا الليْلة بين الفنّ والشعر والذكريات المؤلمة .. لمْ نتحدّثْ مُطلقا عن الفرح، غير ما صدحتْ به الأغاني.
وحتّى الأغاني التي كانتْ تُؤنسنا، أغلبها لفنانين غالبوا الوقْت حتّى كاد يغلبهم.
اِسْتمعْنا إلى مرسال خليفة والشيخ الضرير وفيروز، وأحيانا "سيلين ديون" و "جون ميشال جار".. كانت الليلة مزيجا من الأحزان والفوضى والبكاء، إلى آخر ساعات الليل. ولم تغبْ "ماجدة" عن حديثنا، بل كانت كلّ الحديث.
حكتْ "لينا"، وكنتُ ممدّدا فوق السرير على ظهري:
- لم يكن أحد يتوقّع أنْ تُقْدم "ماجدة" على تلك العمليّة.. لا أحد صدّقها..
"ماجدة" أختي، تبْدو مُسْتهترة وفوضويّة. ومنذ أنْ أكملتْ تعليمها واشْتغلتْ مُمرّضة، لمْ تعدْ تهتمّ بغير مظهرها وأناقتها، وكأنها لا ترى الجرْحى والموتى والكوارث التي تصلها يوميّا إلى المسْتشْفى.

ـ يعني نُقْصي فرضيّة الفقر من الأسباب المُؤدّية إلى الإرهاب.
ـ (بغضب) أما زلتَ تقول إرهابا ؟
ـ لينا ..هذا كلامهم. نحن نعرف ماذا تُسمّى هذه العمليات.. لا عليكِ أكملي.
ـ الغريب أنّ أختي "ماجدة"، لمْ تلبس الخمار ولم تُدمن الصلاة.. فهي لا تُصلّي أصلا. لهذا صدمتني صورة "ماجدة" المنشورة على الأنترنات.. صورتها وهي متحجّبة.
ـ إذن، نُقْصي فرضيّة كون الانتماء الدينيّ هوّ الذي يؤدّي إلى القيام بهذه العمليات.
وبعد...
ـ وبعد..(قالتْها بتأفف ونقْمة، ثمّ تمدّدتْ بجانبي) اتضح أنها انضمّت إلى حركة الجهاد الإسلامي.
وبعد، نفّذتْ ماجدة العمليّة، وقدْ تركتْ وصيّتها مُسجّلة، ونُشرتْ على الأنترنات بموقع حركة الجهاد الإسلامي.
وكالعادة.. هبّتْ القوات الإسرائيليّة لتفْتيش المنزل وإخراج أمي وجدّتي، ثمّ فجّروه بما فيه.
ـ لا حول ولا قوّة إلا بالله.. وأين اسْتقرّتا ؟
ـ .... (تجاهلتْ سؤالي) ....
ـ وطبعا، ندّدتْ السلطة الفلسطينيّة بالعمليّة وشجبتْها، معتبرة إياها اِسْتهدافا للأبرياء العزّل ولا ننْسى أنّ بقيّة الأنظمة سـ ..

لمْ أكمل كلامي .. فـ "لينا" اِنْخرطتْ في النوم دون اِسْتئذان.
المسْكينة، بكتْ كثيرا هذه الليلة، وليس بوسْع أحد غيرها أنْ يتحمّل كلّ هذه الكوارث.
كانتْ مُنطوية بجانبي، تدسّ رأسها في كتفي كعصفورة تبْحث عن الدفء.. مسحْتُ على شَعرها وخدّها، ثمّ دثّرْتها مُسْتحضرا أغنية فيروز:

يالا تنامْ ريما يالا يجيها النّومْ
يالا تحبّ الصَّلا يالا تحبّ الصُّوم
يالا تجيها العوافي كلّ يوم بيومْ

صباحا، كانت الساعة تُشير إلى السابعة. و"لينا" ما زالتْ ممدّدة كنهر قبل الشروق.
تسلّلتُ خلسة لأكتب لها ورقة، ضمّنْتها هاتفي الجوال وعنْواني، وخرجْتُ.
كانت العاصمة ما زالتْ لم تدبّ الحياة فيها.. وفي اتّجاه نزل أفريكا بشارع بورقيبة، اِعْترضتْني سيّدة يبْدو من ملامحها أنها مومس، أكملتْ مُهمّتها الهادفة هذا الصباح، أو أطردها أحدهم بعد أنْ نَهَل من لحمها الغضّ.
رائحة الخمر ما زالتْ تعْبق، رغم محاولة عطرها الصارخ أنْ يسْترها ويسْتر رطانتها.
قالتْ وهي تحاول أنْ تسْتوقفني:
ـ صباح الخير
ـ صباح الخير
ودون أنْ أتوقّف أو أترك لها فرصة أنْ تضيف، واصلتُ سيْري غير مُبال، مقارنا بين سيّدة في فلسْطين تنْفجر من أجل قضاياها، وأخرى في تونس تنْفرج من أجل الدولار أو من أجل شهوتها.

وحدّثْ ولا حرج عن الطالبات ونساء النزل والأحياء الراقية والمومسات المُنْتشرات في المقاهي والفضاءات العموميّة والطرقات أينما سرتَ.
اِقْتنيْتُ صحيفة تونسيّة وعلبة سجائر، ودخلتُ مقهى "أفريكا".
عدد الرواد لا يزيد عن العشْرة، والنادل يتنقّل بأناقة تسْبقه اِبْتسامة ما عهدْتها عنْد نادل.
المكان يُعْطي اِنْطباعا بالراحة والهدوء. وبعيدا عنْ أعين تعْرفكَ أو تعْرفها. لا أحد من أصدقائي أو رفاقي يعرفني أرْتاد هذا المكان، ولم أدْخلْه إلا مرّة واحدة مع صديق شاعر تعرّفت عليه في زحمة الحراك الثقافي التونسي الراكد كالمياه الآسنة.
فور جلوسي، وصل النادل مُبْتسما:
ـ صباح الخير.
ـ صباح الخير.. "إكسبراس" من فضلك.
ـ حاضر.

فتحْتُ الصحيفة على أخبار عهدْتها.. ولا شيء تحت الشمس. لا أذكر أني قرأتُ خبرا مُهمّا بصحيفة تونسيّة، عدا أخبار الرياضة.
فيما سحبْتُ سيجارة لأشْعلها، وصل النادل... رتّب القهوة بأناقة وانْصرف. فيما أكملتُ تصفّح الجريدة مُدجّجا بالنقمة والكره:
صفحة الغلاف تتصدّرها صورة رئيس الجمهوريّة وثلاث صور اِختيرتْ من مقابلات كرة القدم، وأخرى صورة لمُصاب فلسْطينيّ من بيت حانون (هكذا قالوا).
فيما تحضر صورة صدام حسين أسفل الصفحة مثْبوعة بنبوءة مُنجّم مغربيّ: "صدام سيموت مسموما بأياد أمريكيّة".
وفهمتُ أنْ لا شيء يسْتحقّ الاِهتمام، في صحيفة كغيرها من الصحف الملأى بخزعبلات السياسيين وانجازاتهم التاريخيّة وصور كرة القدم وأخبار النجوم والمنجّمين.
كنتُ أردّد دائما أنّ الخبر الصحيح الوحيد في صحافتنا التونسية، هو أخبار الموتى.
فتحت الصحيفة على افتتاحيتها بقلم رئيس التحرير، يمجّد و يبارك و يدعو لفخامته بطول العمر ولحرمه المصون، داعيا إياه إلى الترشح لانتخابات الرئاسية القادمة، دون أن ينسى التنديد "بالغربان الناعقة" من الحقوقيين والنقابيين الذين لا يريدون الخير لهذا البلد.
شرعتُ أتصفّح الورقات دون اِهتمام، حتى أدركتُ خبرا عن الندوة الفكريّة التي عقدها أحد الوزراء، ملخّصها "تونس توفقتْ لأنْ تُساير جملة التغيّرات الإقليميّة والدوليّة"
عندها ألقيت الصحيفة جانبا، وقدْ مثلتْ أمامي مواقف الزعيم بورقيبة و ريادته في اتّخاذ القرارات الصائبة.
كيف اِختار ذلك الزعيم أنْ يساند الحلفاء في الحرب العالميّة الثانية، وكيف كان قادرا على التنبّؤ بهزيمة المحور.
تذكّرتُ موقفه من الحرب الفلسطينيّة الإسرائيليّة، وكيف طالب العرب بقبول قرار التقسيم الذي فرضتْه الأمم المتّحدة، ورفضه العرب جميعا. ورغم الاتهامات المختلفة بالخيانة والاِنهزاميّة، إلا أنّ التاريخ أثبت صحّة مواقفه من الأحداث.
الغريب أنّ كلّ الرؤساء، يدّعون الحكمة والديمقراطيّة والدفاع عن حقوق الإنسان ودعم قضايا الشعوب و..

تخيّلتُ طفلا منحه الخالق قدرة المعرفة والكلام منذ يومه الأول، وتمّ وضْعه في قاعة ملأى بالشاشات التي تبثّ قنوات عربيّة مُخْتلفة.. طبعا سينْتشي هذا الطفل، ويقف مهللا بجمال هذا العالم.. إنها الجنّة.. سيعتقد لا محالة أنه وُلد في الجنّة على خلاف خلق الله جميعا.
كلّ الأمور على ما يُرام: حكامنا وشعوبنا ولا شيء يُقلق راحة هذا المواطن العربيّ عدا أنّ دولته لا مشكلة لها.
أفقْتُ من حلم اليقظة على النادل يفتح جهاز التلفاز، على قناة الجزيرة القطريّة، حيث ينْقل مراسلها من طهران آخر أخبار الجدل القائم بين إيران والغرب حول الملفّ النوويّ.
حين أكمل، اتّصل معدّ البرنامج هاتفيا بمحلل سياسيّ عربيّ يُدافع عن إيران، مُعتبرا إياها مُنْقذ الأمّة من أعدائها. كان يدافع بحماس منْ يُدافع عن أمّه وهي تُغتصب.
لحظتها جالتْ بخاطري فوضى من الأحداث والمواقف والتحاليل، لم أسْتطع ترْتيبها:
مثلتْ الفتْنة الكبرى والحسن والحسين وعليّ وعائشة وعثمان وقتل الصحابة غدرا أو ردّة..
حضرتْ حضارة الفرْس وتاريخ الشيعة والشاه والحرب العراقيّة الإيرانيّة..
حضرتْ الأحياء والمدن الشيعيّة في العراق، وحَضَر حزب الله وحسن نصر الله والخميني..
حضرتْ "طنب الكبرى" و "طنب الصغْرى" و "أبو موسى"..
حضر سليمان رشدي وفتوى الخميني بقتْله..
تأمّلتُ ذلك المحلل الأنيق بربْطة عنق أمريكيّة، وبدلة أنيقة من محلات باريس الفاخرة، مُضافا إليها لباقته وقدرته على المُناورة بلهجة عربيّة منمّقة بكلمات إنجليزية ليكتمل مشْهد المثقّف العضْوي.
تأمّلتُ.. وكدتُ أصْفعه بمنْفضة السجائر التي أمامي.. غير أني تراجعْتُ، مُشْفقا عليه وعلى المستمعين الكرام:
أحدهم بزيّ شيوعيّ اِهتَرَأ ولفّه الصدأ، لا زال يلوك خطابات لينين وماركس وتروتسكي وبيانات الحزب الشيوعي، ويحلف بماو ويعظّم فيدال كاسترو..
أحدهم بزيّ القوميين العسْكريّ، يزور قبر عبد الناصر أو يغرق في ترهات عصمت سيف الدولة أو يتباهى بنظريات ميشال عفلق..
أحدهم بجبّة عثمان، ولحية عمر عبد الرحمان، يخطب في الناس زورا وبهتانا، ويُدافع عن تعدد النساء وزواج المتعة، وينادي بالخلافة السادسة.. ولا خلافة ولا هم يخلفون.
ومن تبقّى فشعارهم عاش الملك، مات الملك: مرّة في خانة الأمريكيين الأحرار، وأخرى مع التطبيع وضمّ دولة اليهود إلى الجامعة العربيّة، وطورا في حضيرة السلطة، يتمعّشون من لحمها الغضّ، قبل أنْ تسْقط بموت الملك أو بالاِنقلاب عليه . لينْقلبوا كما اِنْقلبوا، وكأنّ شيئا لم يكن.
تذكّرْتُ أحدهم، لا أسْتحضره ـ ربما أحد المعْتوهين أو العاقلين، وهو يقول:
ـ أنا أنتمي إلى "حزب الديك".
ـ وما حزب الديك ؟
ـ أنْ تأكل وتشْرب وتتدرّب على كره الوطن.
ـ (أجبتُ مُسْتغربا) وهل كره الوطن يسْتحقّ الدربة ؟
ـ بالطبع.. مثلما تتدرّب على حبّ اِمرأة، تساعد نفسك وقلبك على أنْ تحبّها أو تتقرّب منها. بالمثل تتدرّب على كره الوطن.. بمعْنى، تساعد نفسكَ وقلبك على أنْ تكرهه وتبْتعد عنه.

ـ بصراحة لا أعرف أحدا يكره الوطن. قد يكره الساسة أو الوضع العام أو أيّ شيء.. لكن الوطن مقدّس.
ـ (ساخرا) الوطن الـذي أعنيه أنا ليس الوطن الـذي فهمْته. لذلك أنا أنتمي "لحزب الديك" الذي له مفهوم خاص للوطن..

لم يتْرك ليَ النادل أنْ أسْتحضر بقيّة الحوار، حين اِقترب من الطاولة يرفع فنجان بعد أنْ نفذتْ قهوتي.
انْتصبْتُ واقفا.. ناولْته ثمن المشْروب، وانْصرفْتُ دون أنْ أنتبه أنني نسيتُ الجريدة سهوا أو مُتعمّدا.

الفصل الرابع

سقوط النجمة

للمرّة الأولى أنهض على الإِسْتثناء .. للمرّة الأولى أنا لستُ أنا، ولستُ تلك الفتاة التي تنْعم بالبذخ الرأسماليّ والرفاهيّة.
لمْ أجدْ السرير ليّنا كعادته، ولا وسادتي الحريريّة، ولا الحاسوب الذي لا يفارق غرْفتي، ولا ألمعلّقات النحاسيّة والتحف التي يهدنيها أبي.
للمرّة الأولى لا أفيق على صوت " فاطمة ".. تبصْبص قرب سريري، تنْتظر أنْ أمنحها فطورها الصباحيّ.
هكذا كنتُ أنادي كلبتي "فاطمة"، تهكّما على العرب والمسلمين الوسخين. و"فاطمة" من فصيلة ألمانيّة نادرة، كادتْ تنْقرض عقب الحرب العالميّة الثانية. جلبْتها معي من "بلون" الألمانيّة، في إحدى زياراتي لبعض أهلنا هناك.
للمرّة الأولى لا أسمع صوت "نارمين" عبر الهاتف أو رسالتها التي أتلقّاها بالبريد الالكتروني.
للمرّة الأولى أصطدم بالمكان مُرتبكة، وأنا أنهض كمن يحمل حائط المبكى.. أو أحاول أنْ أنهض مقيّدة اليدين والساقين، مُلقاة حذو أكياس أجهل كنهها وحمولتها.
أرى السقف يُشبه لون علبة صفيح، يوشك أنْ يُطبق على أنْفاسي.. يوشك أنْ يسْقط . حتّى أنني أحرّك جسدي بحذر لا مثيل له، مُنْتبهة إلى منعرجاته ونتوءاته. علّ حركة عنيفة واحدة، تُساعده على السقوط، فيدْهس جسدي.
بنفْس المكان، وأنا مُلقاة كغيري من الأكياس تماما.. لا شيء يساعدني على معرفة المكان. فالأكياس موجودة في كلّ المدن والقرى، وبأيّ مكان في العالم. ولا شيء غير بعض الأدوات الفلاحيّة البدائيّة، تُذكّرني بالعرب في القرى الفلسطينيّة.
آه... تذكّرتُ... ربما في قرية من قُرى البلد الذي وصلْتُ إليه منذ ما يزيد عن الشهرين.
قلتُ ربما... وفي الحقيقة أنا مُرهقة إلى درجة أنني لم أعدْ أتذكّر شيئا.
أحاول أنْ أحرّك رأسي بعنف كيْ أنفض الذاكرة من طحلبها، علّي أسْتحضر شيئا أو أنتبه لسبب وجودي بهذا المكان المُقرف.. في ذات الوقت أحاول أن لا أُزعج السقف كي لا يسقط.
... أمْسح المكان ببصري، علّي أعثر على ما به أتعرّف على المكان.. جدران طينيّة تُغلّفها الرطوبة والعناكب وحشرات لا عهْد لي بها.
وبسرْعة اسْتقرّ بصري على أعْمدة خشبيّة تشدّ السّقف كيْ لا يسْقط. وبالكاد يتّسع المكان لسيارة، لولا هذه الأكياس المرصوفة خلفي.
وأنا أرى الأعمدة الخشبيّة، أتخيّل فأرا يتسلّقها ويقضمها مُبْتسما أو ساخرا من جلستي أو من قيودي.. ينْهش العمود ولا يُخلّف فضلاته. إنّه يلْتهم العمود وينْتفخ.. يقضم العمود وينْتفخ، حتّى صار الفأر خنزيرا.
أنا أسْتغرب كيف اِسْتطاع العمود الأخير أنْ يتحمّل وزْن فأر بحجم خنزير. مع ذلك أكمل الفأر العمود الأخير، حتّى صار كبغل، أوشك أنْ ينْفجر.. والسقف أوشك أنْ يسْقط..
أوْشك أن ينفجر.. أوْشك أن يسقط ..
اِنْكسر بصري إلى الأرض، وقلّصْتُ جسدي، فأنا ميّتة لا محالة.
فُتح الباب، فصات صديدا ولم تدْخل الشمس. ربّما هو الليل أو ربما من فَتح الباب سدّ على الشمس مداخلها.

دخل ثلاثة رجال مُلثّمين، يرْتدون أزْياء شبه عسْكريّة. تقدّم أحدهم تسْبقه فوهة مدْفعه الرشاش، فيما بقيَ زملاؤه قرْب خدّ الباب. ولا أعرف إنْ كان عددهم يفوق الثلاثة.. من يدري ربما كان المسْتودع مُحاصرا بمجموعة من الإرهابيين.

تقدّم أحدهم بمشْية ثابتة متوازنة، وعيناه تبْرقان بحدّة عيون الصقْر. جعلتْني أخمّن أنه شاب لم يتجاوز الأربعين.

سألني بصوت جهوريّ هزّ به أركان المستودع، حتّى خلته يسقط:

ـ هل تتكلّمين العربيّة ؟

لهجته العراقيّة جعلتْني أحدّد موقعي.. نعم أنا الآن في العراق.. في بغداد تحديدا، ومُتأكّدة أنني دخلْتُ بغداد. نعم آخر صورة بقيتْ عالقة بذهني هوّ مُروري بالجسر على سيارة سُخّرتْ من أجلي. أذكر أنّ السيارة توقّفتْ بسبب عطب مفاجئ، وأذكر أنّ أحد المارة تقدّم لمساعدتي.. وأذكر..

أذكر ماذا ؟ لا شيء. فقط أذكر أنّ أحد المارة عرضَ عليّ مُساعدته، ولا شيء بعد ذلك.

إذن لماذا أنا هنا؟ هل لا زلتُ في بغداد؟ أمْ تمّ نقْلي إلى جهة غير معلومة؟

اِرْتَعَدتْ فرائصي، وتجمّد الدم في شراييني واسْتَنْجدْتُ بكلّ الكتب السماويّة.

الآن فقط، فهمتُ أنني بين أيْدي الإرهابيين العراقيين. وكأنّ الإرهابيّ الذي أمامي مرّر أذنه إلى جهة الذاكرة، وتنصّت على وشْوشات أفكاري.. كأنه اِسْتاء من كلمة "الإرهابيين"، فزمجر ثانية:

ـ هل تتْقنين العربيّة ؟

ـ (أجبْتُ بارْتباك) yes نعم

شعرْتُ أنّه اِطمأنّ قليلا، لمّا رأيت نظراته ترْتفع إلى مسْتوى السقف، وردّ:

ـ حسنا، أنتِ الآن في حماية المقاومة العراقيّة الباسلة. لا تخافي، لن نُسيء إليكِ. فقط عليك بقراءة هذه الورقة، وسنقوم بتسْجيل ذلك وتمريره لوسائل الإعلام.

اِلتفَتَ إلى أحد زملائه، وأشار بسبّابته كأنه يطلب اِسْتدعاء أحد ما. ثمّ مدّ لي الورقة، وألقاها بإهمال على ركبتيّ، ثمّ عمد إلى فكّ قيْدي.

فتح زميله الباب ودخل أحدهم يحمل آلة كاميرا، ووجّهها نحوي، وأشار إليّ كيْ أقْرأ الورقة بصوت واضح ودون اِرْتباك.

لحظتها، كانت النبضات تتصاعد، وعيوني أحسستها تُحاول الاِرْتماء على التراب من شدّة الخوف. مع ذلك حضرتْ "نارمين" بعنْف جسدها وشهوتها. حاولتُ إقصاءها من الذاكرة، لكنها تمسّكتْ بالحضور رغم الغياب.

كان شذوذها يدْفعها لتقْييدي إلى السرير من معصميّ وساقيّ، وتشْهر سوطها في جسدي.. على إليتيّ وخصْري وفخذيّ.. مُتمتّعة بآلامي.

و "نارمين" كانت تُصرّ في لحظات الشذوذ التي تجْمعنا، أنْ أجلدها حتّى البكاء، وتُصرّ على ذلك. حين تُمارس عليّ عنْفها، كثيرا ما تُدْمي شفاهي وجسدي بأسْنانها وسوْطها.

وما كان يدْفعني لتحمّلها، هوّ ذلك الجسد الشهيّ الذي يُميّزها، لم أصادف امرأة بتلك الأنوثة الصارخة.. ذلك الجسد الممتلئ، وتلك الشفاه المُكتنزة.. كانت كلّ حبّة في جسدها، تُثير فيك وديانا من الشهوة.

كانت كذلك دائما، حتّى أفقدتْني شوقي للرجال. منذ عرفتها، ومارسْتُ معها ـ أو بالأحرى أجبرتْني ـ شذوذ السحاقيات، رفضْتُ كلّ الرجال الذين أبْدوا رغبة في مُعاشرتي. بالمثل كانت "نارمين" ترفض الرجال وتكرههم، لذلك لا تُعاشر إلا النساء.

.....

صرخة الإرهابيّ أسْقطتْ "نارمين" من ذاكرتي نحو الإقصاء. قال آمرا:

ـ عند الإشارة، تبْدئين في قراءة الورقة.

- ....

أردْتُ أنْ أعلّق مُتسائلة، غير أنه أكمل بنفس النبرة الآمرة:

ـ الأسئلة والتعاليق ممْنوعة.

بارْتعاش لمْ أسْتطع تداركه، أمْسكْتُ الورقة من طرفيها، وتلوتُ:

"إني أنجيلا موردخاي، العاملة بمنظمة الأمم المتحدة بالعراق منذ شهرين، أهيب بالحكومة الأمريكيّة والحكومة الألمانيّة والمجتمع الدولي، لمساعدتي وإطلاق سراحي. في مدّة لا تتجاوز اليومين. مع العلم أنني في صحّة جيّدة وأُعامل معاملة حسنة"

بسرعة من فاجأه الحيض، اختطف الإرهابيّ الورقة من أناملي، وأعاد قيدي.

فيما انْسحب المصوّر مهرولا، وتبعه الآخرون بارْتباك لم أفهمه، إلا بسماع دويّ انْفجارات هزّتْ المنطقة.

فاجأني الدوار، وحاصرني الخوف، كمن يقترب من حبل المشنقة. مخافة أنْ ينالني القصف الأمريكيّ، أو يسْقط أحد صواريخ الكاتيوشا على المكان خطأً. وما ضاعف خوفي، تسلل روائح الكبريت والفسفور إلى المسْتودع، مع تصاعد عمليات القصف وإطلاق النار.

الرعب الذي يحاصرني، كان مع الاِرْتباك والخوف والقيء الذي يفاجئني.. كان يُخدّرني.

ربما بفعل الدخان الذي اسْتنْشقته. مع ذلك كنتُ أشْعر بارتخاء لذيذ يتوزّع في كامل شراييني.

ارتخاء يعيد "نارمين" إلى الذاكرة... تحضر وهْي تلْعق بلسانها شفتيّ وفخذيّ ونهديّ، حتّى تصل أسْفل سرّتي، لتتسلّل لمسام الجلد نشْوة ممْزوجة باللذّة والانتشاء والسّكْر. وأنا المقيّدة، كلّ شيء يتحرّك في جسدي نبْضة.. نبضة.

أما الآن، فلا شيء يتحرّك فيّ، حتّى النبض نفسه. حتّى أني أُوشك أنْ لا أسْمعه... وغبْتُ ....

لا أذكر المدّة التي غبْتُ فيها عن الوعْي، ولا شيء هنا يُحيلكَ إلى الزمن الكرونولوجيّ. حتّى الشمس، لا تدْخل هذا المسْتودع. ربّما كان المكان قبْوا أو غرفة تحت الأرض أو أنّ الشمس حجبتْها الأدخنة والغبار والحرائق عن كامل العراق.

وأنا أسْحب خيوط الوعْي شيئا فشيئا، تناهت إلى مسْمعي وشْوشات من الخارج، ربما أولئك الذين زاروني منذ ساعة أو ساعات، أو ربما غيرهم من مجموعات إرهابيّة أخرى.

تتالتْ دقات قلبي، حتّى كادتْ تُسْمَع إلى الخارج. فكتمْتُ تنفّسي، حتى لا يتناهى إلى الإرهابيين.

أكمل أحدهم حديثا، لم أتبيّنْ أوّله:

ـ (..) وإذا لم يسْتجيبوا؟

ـ لا أدري.. ربما نعْطيهم مهلة أخرى.

- وبعد..؟
- إنْ اسْتجابوا.. وإلا...
- وإلا ماذا ؟ القائد "نواف" ربما ينفّذ فيها حكم الإعدام.
- أقسم بالله، لولا مصلحة المقاومة، لنفّذْتُ حكم الإعدام في " نوا ..."

تكهّنْتُ أنّ رفيقه منعه من إكمال جملته، بوضع يده على فمه، كأنّه ارْتكب جُرْما.
و أكمل بعد أنْ منعه صديقه من نطق أسْم "نواف":
- من "نواف" هذا، حتى يكون قائدا علينا ؟ نحن أحرار العراق... نحن أبناء حزب البعث .. و هذا الفلسْطينيّ، ما الذي أتى به إلينا؟
- (علّق بهدوء) هذا ليس وقتا مناسبا للتشْويش والحسابات.. العراق الآن يضجّ بالعرب و الشيعة والأكراد الذين لا زالوا يتوافدون منذ وصول الاحتلال، وهم يشاركوننا النضال. و نحن نعلم أنّ "نواف" موجود في العراق منذ حربنا مع الكويت.
هوّ الآن يا أبا المجيد أكثر وطنيّة من بعض العراقيين. رجاء أبا المجيد.. لنؤجل الحسابات.
- يكفينا تأجيلا للحسابات.. وجود العرب في العراق، هوّ ما شوّش علينا طرق العمل، واختلط الحابل بالنابل: هذه كتائب محمد، وأخرى جيش المهدي، وتلك ميليشيا الصدر، ورابعة وخامسة وألف...
قل لي بربّك منْ يُقاوم من، ومن يدافع عن العراق، ومن يخدم الاِحتلال ؟
- أبا المجيد، رجاءً... لا داعي لهذا الكلام. نحن مُتّفقون على أنّ مَنْ يخون القضيّة يُعدم، ولو كان عراقيّا. إذا ما دام نواف مُخلصا كغيره من الشرفاء العراقيين، فهذا يشرّف قضيّتنا.
والحقيقة يا صديقي يعدّ نواف من طينة المناضلين الأحرار.. أعرف نواف منذ سنوات، حين التقيت به على هامش الملتقى القومي العربي، وكان لا زال جاهلا بالوضع العراقي رغم أنه يدرس الفلسفة بجامعة بغداد. مع ذلك كان قادرا على استيعاب وتحليل الراهن العربي والدولي، وله القدرة على أن يفسّر ويتنبّأ بالنتائج. ومنذ أنْ غيّر جنْسيّته إلى العراقيّة صار عراقيّا (حرّك رأسه وابتسم بمكر) لا تتصوّر أن أجهزة حزب البعث يمكن أنْ تتركه دون رقابة، حتّى وقد صار بجنسيّة عراقيّة.
- بمثل هؤلاء سقطتْ بغداد.. وعن طريقهم وصلتْ المعلومات المخابراتيّة إلى الأمريكان والصهاينة (شبكَ عشْره على رأسه) العراقيّ الحرّ لا يخون العراق (وبنبرة أشدّ حزما) ثمّ أليْس الأحرى بهؤلاء أن يدافعوا عن فلسطين ؟
- هذا موضوع آخر..
(تغيّرتْ نبْرة صوته بارْتباك، وخوف) انتبه أبا المجيد، هناك تحليق طائرات.

كنتُ مُسْتمْتعة بالحوار ومرْتبكة، متمنّية أنْ أكون خارج هذا القبو لأرى المُطلق والامتداد.. لأرى هذا العالم. قطعا إنه ليس بغداد. كنتُ في بغداد لا أمرّ إلا من شوارع محدّدة، وحسب التعليمات.
إنّ مهنتي تفرض عليّ التقيّد بالأوامر والأوقات بانْضباط جماعيّ وآمن. إنّ وجود مقرّنا بالمنطقة الخضراء، يجعلنا في مأمن من أسلحة الإرهابيين، وتحت حماية القوات الأمريكيّة. ولولا ذلك العطب المفاجئ للسيارة، لما كنتُ هنا الآن.

.....
عادتْ بيَ الذاكرة إلى أوّل لقاء جمعني بـ "نارمين"، حيث كان عطب السيارة ـ بالمثل ـ سببا في تغيير حياتي الخاصة.
ففي زيارة لأحد أقاربي في برلين، تعطّلت السيارة، ربما بفعل رداءة الطقس والثلوج المتهاطلة.. كان الطقس أشدّ من قسوة الحرارة في بغداد.
تسمّرْتُ خلف المقْود، مُحاولة إعادة تشغيل المحرّك، دون جدْوى... فكّرْتُ في اسْتعمال الهاتف الجوال، غير أني لا زلتُ بعيدة عنْ مقرّ أقاربي، وبالمثل ابْتعدْتُ عنْ منزلنا بحوالي ستين كلمترا.
نزلْتُ من السيارة، محاولة الاِسْتنْجاد بأيّ كان.. كنتُ أشير إلى السيارات العابرة دون أنْ تعيرني أيّ اهتمام.
حين هممْتُ بالرجوع إلى المقعد، أشارتْ لي سيارة بأضْوائها، فأشرْتُ بيدي فتوقّفتْ.
فتحْتُ الباب طالبة المساعدة، فابْتسمت مُرحّبة، وكأنها تعْرفني منذ سنوات.
حين اسْتويْتُ على كرْسيّ سيارتها، مثبّتة حزام الأمان حولي، انْتبهْتُ إلى سيّدة غاية في الجمال والأنوثة. وبلباس يكشف عن كامل فخذيها ونهديها، اسْتغربْتُ من قدرتها على تحمّل البرد بتلك الملابس.
أردْتُ أنْ أبرّر:
ـ تعطّلت السيارة دون سابق إعلام... لا أدري... هذه المرّة الأولى التي تحصل معي.
ـ هذا وارد في كلّ الأوقات... أنا "نارمين". وأنتِ ؟
ـ أنا "أنجلا".
ـ إلى أين مقصدكِ؟
ـ إلى برلين.
ـ هذا طريقي (مُتداركة) سنعرّج على منزلي بعض الدقائق.. لا بدّ أنْ أحمل بعض الأغراض.. هل تصحبيني ؟ خمس دقائق فقط، ثمّ نكمل طريقنا.
ـ لا مانع .. لا مانع.
أرجو فقط أن لا أكون قدْ أزعجتكِ.
ـ لا داعي للشكر، كلنا يتعرّض لمثل هذه المواقف...
(صمتتْ قليلا) ربع ساعة فقط، ونكون قد وصلنا.

بالفعل، ربع ساعة كانت كافية لتجدني في قاعة جلوس فاخرة ومتّسعة. بيتها ينمّ عنْ بذخ صارخ.. الكريستال والتحف النحاسيّة والفضّيّة وقطع العاج والزرابي الفارسيّة.. كلها تُصيبكَ بالذهول.
كنتُ أمْسح ببَصري كلّ المعلّقات واللوحات والتحف، متسائلة:
ـ هل هذا منزلكِ؟
ـ (وهي تتجه إلى إحدى الغرف) بالطبع.. ورثْته عن والدي. فأنا ابنته الوحيدة.
أمامكِ الويسكي، خذي ما شئت.

تناولْتُ قارورة الويسكي، أسكب منها دون أنْ أرفع بصري عن المعلّقات والزرابي والتحف التي تُحيلكَ إلى منزلة الطبقات الأرسْتقراطيّة بأوربا.

فاجأني صوت "نارمين" من الداخل:
- أنجيلا... تعالي لحظة.

لا زلتُ مُمْسكة بكأس الويسكي، مُتّجهة إلى غرفتها ودخلْتُ بانتباه شديد، فخاطبتْني بإلحاح:
- أنجيلا.. أدخلي.
دخلْتُ غرْفتها ذات الإنارة الحمْراء الخافتة، كأنّك بإحدى العلب الليليّة، عدا كون الموسيقى هنا خافتة. خمّنتُ أنها موسيقى "جون ميشال جار" أو "خوليو أجليسياس". ولم يكن في الغرفة ما يشي بالغرابة، عدا صورة ضخمة لمادونا، وهي شبه عارية. وكانت "نارمين" ممسكة بفسْتان. قالتْ:
- هل تُساعديني؟
- بالطبع.
- لي صديقة أريد أنْ أهديها هذا الفسْتان، بمناسبة عيد ميلادها.
- لكن.. لكن كيف سأساعدكِ؟
- جسدها يشْبه جسدكِ تماما.. هل تُجرّبينه؟
- بالطبع... لا مانع عندي.
وضعْتُ كأس "الويسكي" على طاولة صغيرة حذو السرير.. تناولْتُ الفسْتان من بين أصابعها... مددْته على ظهر الأريكة، وشرعْتُ أفكّ أزرار سروالي وملابسي الأخرى. حين تعرّيْتُ تماما إلا من ملابسي الداخليّة، تقدّمتْ منّي "نارمين" وشرعتْ تمرّر أصابعها على صدْري و شفاهي وفخذي، مُسْتعينة بذهولي.. وكانتْ تدْفعني رويْدا، رويْدا إلى السرير. حين أردْتُ منْعها، فاجأتْني قشعْريرة ساخنة وارْتباك شديد في نتوءات جسدي.. فطاوعْتها. ولم أدْر كيف اتجهت أصابعي إلى أزْرار ملابسها، واحْتضننا السرير.

صباحا، أفقْتُ على صوت "نارمين" .. كانتْ عارية تماما. واحْتجْتُ ربْع ساعة لأسْتحْضر ما حصل البارحة.

.....
.....
دخل عليّ أحد الإرهابيين إلى المسْتودع، ليقْطع عليّ حبْل الذاكرة، شاهرا رشاشه في وجْهي.
وتبعه ثان، مُتّجها إلى قيودي ففكّها، ثمّ غادر في صمْت.
اقْترب الأوّل منّي، ووخزني بسلاحه:
- اِنْهضي، عليْنا بالمغادرة.

لمْ يكنْ بوسْعي أنْ أعلّق أو أتساءل، فما الذي يُمكن أنْ تفْعله الشاة أمام جزارها؟
حين خرجْنا من القبْو، كانت سيارة شرطة تقف بالمكان. فغمرني فرح بالنصْر والنجاة... هممْتُ بالركض نحو السيارة، غيْر أنّ بابها الذي فُتح، والإرهابيّ الذي نزل منها، إضافة إلى الإرهابيين الأربعة الذين يحرسون المكان بمدافعهم ورشاشاتهم... جعلني أغْتال فرحي. وبصعوبة منعْتُ قلْبي من إخماد نبْضه.

دُفعْتُ إلى السيارة، قبل أنْ يدسّوا أجسادهم بجانبي، وتكفّل أحدهم بإعادة قيدي. فيما قام الثاني بوضْع عصابة على عيْنيّ. وانْطلقتْ السيارة دون قدْرة لذاكرتي على تبصّر الأمْكنة و الطرقات والمنْعرجات.

الفصل الخامس

التنظيم

في غرْفة ضيّقة، بمنْزل يقع بالضاحية الجنوبيّة لدمشْق، وصل "أبو مصعب" باسْتعمال شاحنة نقل بضائع.. كان جالسا مع "إيراد الحاج" و "أمير التوم" و "ميلود عبد القادر".

قال إيراد الحاج، مُوجّها كلامه إلى الجميع:

ـ مرْحبا بالإخوة المجاهدين.

ـ (لم يجبْه أحد)

ـ (بيده كان يشير إلينا تباعا لنتعرّف على بعضنا) أبو "مصعب العراقي"، مناضل وطني من العراق... وهو أحد المناضلين الذين مرّوا بتجْربة سجن أبو غريب.

المجاهد "أمير التوم" من السودان.. تحديدا من "أمّ درمان" (وكأنه يريد تأكيد صحّة معلوماته، فوجّه كلامه إلى أمير)

ـ أليس كذلك؟

أجاب "أمير التوم":

ـ وهو كذلك.

ثمّ أكمل "إيراد الحاج" كلامه:

ـ الأخ "أمير التوم"، حارب مع شيخ المجاهدين أسامة بن لادن، في حربه ضدّ السوفيات.

ثمّ وجّه يده جهة ميلود، وأكمل:

ـ ميلود عبد القادر، مُجاهد من "تبسّة" الجزائريّة. لمْ يخْرج من أفغانسْتان، إلا ليدْخل دمشْق في اتّجاه بغداد.

وقدْ أكمل إيراد كلامه... كان الجوّ مشْحونا بالقتامة والتوتّر. فيما كان "أبو مصعب" يتأمّل ملامح "أمير التوم" باسْتغراب.

كان كشيخ يقترب من السبْعين أو أكثر.. وربّما بشْرته السوداء الكالحة، زادتْ في عدد السنوات إلى عمره المتجعّد... ملامحه الهادئة، القريبة من ملامح عرب الجزيرة، زادتْه وقارا وهيْبة، رغم الشيْخوخة.

كان مسْتغربا من قدْرة هذا الشيخ على تحمّل مشاق الحروب، ومخاطر حرب العصابات.. بل راوده شكّ في قدْرته على حمْل بنْدقيّة الكلاشنْكوف.

انْتصب "ميلود عبد القادر" واقفا، قائلا:

ـ ما هو الحلّ الآن ؟ إقامتنا في دمشْق أشدّ خطرا من أيّ مكان آخر.

ردّ "أيراد الحاج"، وقدْ وقف بجانبه مُربّتا على كتفه:

ـ المسْألة تفوتنا... أفهم هذه الخطورة، وأفهم صعوبة المرْحلة. لكن علينْا الإنْتظار، فالوضع متوتّر الآن. مع ذلك، نحن في مأمن بعض الشيء.

علّقْتُ أنا أبو مصعب و دون لباقة:

ـ أيّ أمن هذا الذي تتحدّث عنه ؟

ـ نعم، نحن في مأمن... لمْ يسْبق لأيّ منا أنْ دخل سوريا، ولمْ يسْبق للمخابرات أنْ كشفتْ إحدى الخلايا في دمشْق أو أي مدينة أخرى. علَيْنا ملازمة الحيطة، وعدم مغادرة المكان، في انْتظار التعليمات.
ـ (أردْتُ أنْ أسْأل عن مصير أبي الوليد، وعن مجموعته بقرية "شيخ الحديد"، لكنني أدركتُ الفرْق بين تنظيم سياسيّ نضاليّ، وتنظيم دينيّ جهاديّ...)
قطع "ميلود عبد القادر" عليّ حبال التفكير، وكأنّه يوجّه كلامه إلى خوفي:
ـ لنثقْ بأنْفسنا... وبعون الله ما دمْنا نُدافع عنْ أمّة الإسْلام، فإنّ الله سيهْدينا إلى السبيل القويم.
قلتُ محاولا إخفاء اِرْتباكي:
ـ كلنا يعْرف أنّ العواصم دائما، أشدّ خطرا وأكثرها رقابة. خاصة بالنسْبة إلى التنْظيمات السريّة (موجّها كلامي إلى "أمير التوم" الذي لم يشاركنا الحوار) أنا أسْأل لماذا دمشْق تحْديدا ؟ لماذا لمْ نُغادر صوْب وجْهة أخْرى؟
كأنّ "أمير التوم" فهم اِسْتنْجادي به.. أو ربّما تفطّن لارْتباكي المصْبوغ على ملامحي، لهذا علّق ببرود لا مثيل له، ودون أنْ يبْرح مكانه أو يغيّر من جلْسته:
ـ المسْألة يا ابْني، أبسط من ذلك بكثير..(حكّ جبْهته بإصبعه، فتعثّر الإصبع على التجاعيد) يبْدو أنّك قليل الخبْرة بالحركات الجهاديّة. صحيح أنّك مررْتَ بتجربة سجن أبو غريب، لكنّ هذا لا يكفي لتكون مجاهدا.
دعْ خوفكَ بعيدا عنك... أطْرِدْه من داخلكَ.. أشْنقْه في الساحات العامة، مُسْتنْجدا بكتاب الله وسنّة رسول الله.
نحن يا بنيّ، نخوض حرْب ديانات منذ أرْسل الله آدم إلى الأرْض... لا تسْتمع إلى أحاديث الإعلام و السياسيين والصحافة المأجورة. نحن الآن أمام خياريْن، لا ثالث لهما. إما أنْ ينْتصر الإسْلام، أو تنْتصر المسيحيّة (وبسخْرية) أقصد اليهود.
سحب نفسا عميقا، وقطّب جبهته مستعدا، وبسبّابته التي تعينه على قول حازم:
بسم الله الرحمان الرحيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال الله تعالى في كتابه العزيز
"ولَنْ تَرْضى عنْكَ اليَهُودُ ولا النّصارى حتّى تتّبعَ ملّتهُم قُلْ إنّ هُدى اللهِ هوَ الهُدى ولئنْ اتّبعْتَ أهْواءهُمْ بعْدَ الذي جاءَكَ منَ العلْم ما لكَ من اللهِ مِن وليّ و لا نصير".
صدق الله العظيم.
ردّد الحضور بعده:
ـ صدق الله العظيم.

حاولْتُ أنْ أغيّر مجْرى الحوار، كيْ أُخفّف عنّي لغة الوعظ والإرشاد:
ـ لكنّ المسيحيّة ليْست اليهوديّة، إنهما ديانتان مخْتلفتان.
ـ دعْك من هذه الخزعْبلات... المسيحيّة في خدْمة اليهوديّة. ولا يجب أنْ تفْهم اليهوديّة كدين يهوديّ، وإنما اليهوديّة باعْتبارها العصا التي يلوّح بها شرْذمة من اليهود، لعنهم الله. (اِنْتصب واقفا، مُعوّلا على شيخوخته. وأكمل وهو يتنقّل ببطء في أرجاء الغرْفة الضيّقة) سأحكي لكَ واقعة واحدة، لتعْرف حجم الصعوبات التي مرّتْ عليّ (مُسْتدركا) هذه آخرها. هيّ مُصيبة من جمْلة المصائب التي يبْتلينا الله بها، ليخْتبر صبْرنا وإيماننا.

يكفي أنْ تعلم يا ابني، أنني أتنقّل وأجاهد في أفغانسْتان منذ 1982. تعلّمْتُ أنواع القتال وكلّ حيَل الحروب، وتدرّبْتُ على جميع الأسْلحة... وخبرْتُ كلّ جبال أفغانسْتان والباكسْتان وإيران.
أنا يا ابني، جرّبْتُ الجوع والعطش والوحْدة والاعتقال، مرّة على يدي السوفيات، وأخرى على يد القبائل الأفغانيّة وثالثة على يد المخابرات العسْكريّة الباكسْتانيّة...
آخر مرّة ـ وأنا أحاول اجتياز الحدود مع مجموعة من الإخوان ـ تمّ اعتقالي داخل الأراضي الباكسْتانيّة. مع ذلك حمدْتُ الله ألف مرّة، وكنتُ سعيدا.
سألْته باسْتغراب:
ـ كنتَ سعيدا...؟
ـ (مبتسما) حمدْتُ الله أني أُعْتُقلتُ في باكسْتان. لأنّ إخواننا هناك كثْر، ويمْكن أنْ أنجو بطريقة أو بأخْرى. ولو أنّ حكومة "مشرّف" لا تتوانى عن خدْمة الأمريكيين، لعنهم الله. لكن ....
أسْعفه "ميلود عبد القادر"، وكأنه كان حاضرا:
ـ لكنّ القوات الأمريكيّة هيّ التي اِعْتقلتْكَ، أليْس كذلك؟
سألْتُ ميلود:
ـ وهل كنتَ مع الإخوان لحظتها؟

أكمل "أمير التوم"، دون أنْ ينْتبه إلى تعْليقي:
ـ هذا طبيعيّ، لأنّ الحدود الباكسْتانية تحت رقابة القوات الأمريكيّة، ومخابراتها التي لا تنام.
سألْته:
ـ وبعْد ...؟
أجاب:
ـ أعادوني إلى أفغانسْتان، وتمّ احْتجازي في حفرة محفورة في الأرض بعمْق ثلاثة أمْتار. وغطّوا الحفرة بقوالب من الحديد يسْتحيل أنْ يحملها عشرة رجال.
ـ كنتُ أتصوّر أنهم سينْقلونكَ إلى "غوانتانامو".
(بمرارة) هذا ما كان سيحْصل لاحقا. غير أنّ الله بقدْرته، أرْسل المجاهدين لإنقاذي. كانتْ ثلاث سيارات مفخخة، كافية لطرْد الجبناء من الموْقع، وتمّ إنقاذي.

كان يسْرد القصّة، ببساطة لا مثيل لها.. لمْ يكنْ مُتأثّرا أو مُنْزعجا أو خائفا. خلْته يحْكي قصّة من الخيال الشعْبيّ. وكأنّ تفكيري لمْ يقْتنعْ أنّ هذه الواقعة أشدّ وقْعا من تجْربة بسجْن أبو غريب.
كيف يمْكن أنْ تكون تجْربة هذا الشيخ، بحجْم مُعاناتي داخل ذلك الماخور، أقْتدي بأوامر المومسات الأمريكيات، وبقوّة السوط وركْل الأحْذية العسْكريّة؟
كيْف تتقبّل واقعة يُجْبَر فيها "الشيخ الضاوي" على أنْ ينْكح ابنته ونساء أخريات بالقوّة، وتحت البصاق والركل والصفْع... وهو الإمام الخطيب بأحد مساجد بغداد؟
باسْتحْضار قصّة "الشيخ الضاوي"، قرّرتُ أنْ أحكيها للإخوان علّهم يتّعضون أو يُدركون أنّ غيرهم من المناضلين في أرجاء الأرْض يُعانون مثلهم أو أكثر منهم.

ـ "الشيخ الضاوي" كان رجلا مُخْلصا لعلْمه، ولطلابه. وحتّى في ظلّ حكومة صدام حسين، لمْ يدْعُ مرّة في خُطبه للقائد بالنصْر وطول العمر... بل كان مقْداما وثابتا، له من الوقار ما يجْعله مُحْترما ومُهابا من الجميع.
ولعلّ الحكومة العراقيّة لمْ تؤدّبْه زمنئذ، إلا لأنّ سلطته الروحيّة تتجاوز مدينة بغداد، إلى كل المدن السنيّة، لم يكن معارضا قطّ، ولكنه لم يهادن ولم يتمسّح على عتبات حزب البعث.
علّق "ميلود عبد القادر":
ـ لعن الله صدام حسين وأمثاله ..
وسأل "إيراد الحاج" بتهكّم، وكان يُعدّ كأسا من اليانسون:
ـ ومنْ أمثاله؟
أجاب ميلود ضاحكا:
ـ لعنهم الله جميعا.. لا أسْتثني أحدا.

لمْ أسْتسغْ هذه التعاليق، رغم قناعتي بصحّتها، وأكملتُ:
ـ تمّ اِعْتقال "الشيخ الضاوي" بعْد سقوط بغداد بشهْرين. وأدْخلوه إلى سجن أبو غريب باعْتباره إرْهابيّا. هذا لأنه لم يكفّ عنْ التحريض ضدّ الأمريكيين.
(فركْتُ جبْهتي كيْ أسْتعين بها على التذكّر) دخل عليه بعض الجنود، وعصبوا عيْنيْه، ثمّ أدخلوا عليْه ابْنته معْصوبة العيْنيْن، وأجبروه على أنْ ينْكحها. ففعل تحت قرْع سياط ووخْز العصيّ الملساء.
كان عاريا تماما، وكانت ابنته كذلك.. لما فكّوا عصابته من على عيْنيْه، كاد يفقد وعْيه، وقدْ رأى ابْنته ورأى الجنديّ الأمريكيّ يصوّر المشْهد بهاتفه الجوال.
اسْتحْضر الله وملائكته ورسله واليوم الآخر... اسْتحْضر الأنْبياء جميعا، فحضروا.. طغتْ غشاوة على عيْنيْه، وارْتمى على الحائط يدكّ رأسه فيه، حتّى سالتْ دماه، وسقط مغْشيّا عليْه.

.....
جلس "أمير التوم" إلى الأرْض حاجبا وجهه بكفّيْه، كأنّه يحجب دموعه أو خوفه، مردّدا:
ـ أسْتغْفر الله... أسْتغْفر الله... اللهمّ لا ردّ لقضائك.. اللهمّ أهْلكْ وشتّتْ جمْعهم.
فأجبْنا جميعا:
ـ آمين... آمين يا ربّ العالمين.

أكْملْنا ليْلتنا، نتسامر ونناقش قضايا المنْطقة وأخبار المجاهدين في أفغانسْتان وفلسْطين والعراق.
وكنتُ مع امْتداد الحوار، أكْتشف جهْلي بشؤون الجهاد وأخبار السياسة والمناضلين... لمْ أكنْ أعْرف من الوضْع، غيْر الساحة العراقيّة الضيّقة التي لا أخْبرها جيّدا.
لمْ أجَارِ الجماعة في سعة ثقافتهم الدينيّة ولا السياسيّة.
فأنا لمْ أكنْ رجلا متصوفا، ولمْ تكنْ لي ميولات تنْظيميّة، سياسيّة أو دينيّة قبْل سقوط بغداد. كنتُ مجرّد موظف بسلْك الشرْطة العراقيّة، أيام حكم البعْث في العراق. أتقاضى مرتّبا يكْفيني أنا وزوجتي وابني " عاكف "، لنعيش دون خصاصة.

وعلى علاّت حزب البعث الكثيرة، لمْ يكنْ يخْطر ببالي أنْ أفكّر في شيء آخر غيْر العمل وقوت العائلة. مُعوّلا على انْضباطي وتفانيّ في العمل. فأنا من عائلة كرْديّة اسْتقرّتْ ببغْداد، وبنتْ علاقات اِجْتماعيّة كثيرة. ولمْ تُثبتْ مخابرات حزب البعث، أننا عائلة منْشقّة أو مرْتدّة أو لها مشاكل وانْتماءات. لذلك ساعدتْني الوساطات على دخول سلك الشرْطة. وكنتُ واثقا أنّ أيّ خطأ قدْ يؤدّي بي إلى السجن أو الإعدام.

.... وسقطتْ بغداد ...

دخلتْ القوات الغازية، وحلّتْ أجهزة الأمْن والجيْش، وأصْبحتُ بيْن عشيّة وضحاها عاطلا ومُشرّدا ومُهدّدا... ولم تكن الفوْضى السّائدة إثْر سقوط بغداد، تسْمح بالتحرّك أو الشكوى أو المُطالبة.

لمنْ ؟ وبمنْ ؟ وكيْف ؟ وأيْن ؟

أنتَ الآن في غابة، لا تعْرف فيها عدوّك ولا صديقك...لا تعْرف الشيعيّ من السنّيّ من الكرْديّ من اليزيديّ من العربيّ من الأفغانيّ من الأمريكيّ من..

لا تعْرف المناضل من المنافق من السمسار من العميل من..

أنتَ الآن لا تعْرف الفرْق بيْن الوجْه والقفا.

وكانتْ ليلة القبْض على صدام حسين، هيّ ليلة قصْف القوات الأمريكيّة لحيّ الأعْظميّة ببغْداد، حيْث أقطن. وتهدّم بيْتي مع كلّ بيوت الحيّ المجاور.. تهدّمتْ حياتي كلّها.. تحطّم الأمل في داخلي... فقدْتُ زوجتي وابني الوحيد... فقدْتُ الإيمان والثقة والصبْر...

وقدْ بان الخيط الأبْيض من الأسْود، ولم يتبعه آذان صلاة الصبْح ككلّ صباح. فلربّما صارت المساجد عصْفا مأكولا أو صار المشائخ و الأيمّة جثثا تُضيف للشوارع مشاهدها الدمويّة... كنتُ مُلْقى على الأنْقاض أنْبش التراب بأظافري، علّي أعثر على أحدهما حيّا... دون جدْوى.

وقدْ نسيتُ أنني لمْ أشْكر الله على نجاتي بأعْجوبة. وما الفائدة من نجاتي، وقدْ فقدْتُ عائلتي؟

بلْ ربّما تمنّيْتُ، لوْ كنتُ معهما لاسْترحْتُ من العذاب. لمْ يكن بعْدها بإمكاني أنْ أفكّر في الحلم.. أحلامي التي حقّقْتها، صادروها أو هدموها أو قصفوها أو.. لا تهمّ الوسيلة ما دامت النتيجة واحدة.

.....

نصف الغرْفة الباقية من المنْزل، هيّأتها من جديد. مُسْتعدّا لإعادة تشْكيل خارطتي، وبوصلتي واتّجاهاتي.. لا بدّ من الحلْم.. لا بدّ...

منْ لا حُلْم له، لا مُسْتقبل له.. لا هويّة له... لا شمس له تُشْرق من أجله وتغيب...

إذن... سقطتْ بغداد... أُحْتُلّ العراق...تهدّم بيتي... وتهدّمتْ بيوت كثيرة... فقدْتُ عائلتي... وعائلات كثيرة شُرّدتْ...

ماذا تبقّى؟

هلْ نبْقى ننتظر الحكومة القادمة؟ هلْ ننْدسّ كالفئران في جحورنا مخافة القتل والاعتقال والتعذيب؟

هلْ نبْقى كالقردة نرْقص في الشوارع، ليضْحك الجنْديّ الأمريكيّ، ثمّ يُطلق الرصاص على مؤخراتنا؟

ماذا تبقّى؟

.....

ونحن نعْقد أوّل اجتماع سرّيّ، لتأسيس خليّة سمّيْناها "مجاهدي الأعظميّة " بمنــزل "الشيخ الضاوي" بعْد خروجه من سجن أبو غريب... والذي أشيع أنه فقد عقله بعْد واقعة هذا السجن. وصدّق كلّ أهل بغداد هذه القصّة.
...ونحن نعْقد أوّل اِجتماع، كنا نحلم بالنضال وطرْد العدوّ ونصْرة قضيّتنا... فقط إذا توفّر السلاح.
أجاب "الشيخ الضاوي":
ـ لا تشْغلوا بالكم بموضوع السلاح.. لنا ما يكْفي لتسْليح جيْش بأكمله.
(وأكمل موجّها كلامه "لحسين البنّا")
أنتَ بالذات عليْك بالحذر أكثر... تثبّتْ من المعْلومات جيّدا.. ولا تُسْرع في نقْلها إليْنا، إذا كانتْ هناك أيّ مجازفة.
أنتَ موظّف بالشرْطة العراقيّة، وأيّ خطأ قدْ يوقعنا جميعا.
سألْتُ الشيخ:
ـ متى نبْدأ عمليّاتنا؟
أجاب بوقار:
ـ عملياتنا ستكون قليلة. لكنها ثابتة ودقيقة.
حسين يعمل في جهاز الشرطة، وله كامل المعلومات والأخبار عنْ تنقّلات الأعوان و مواقعهم.
يعْني... أننا سنتحرّك وفْق المعْلومات التي ستصلنا من حسين.
(أردْتُ الكلام، لكنه قاطعني)
الأسْلحة موجودة وجاهزة... والذخيرة كذلك. ندْعو الله أنْ يُوفّقنا ويُسدّد خُطانا، ويحيى العراق.
ـ (أجبْنا جميعا)... آمين.

اِنْفضّ المجْلس، وخرجْنا فُرادى بكامل الحذر والحيطة، في انْتظار التعْليمات.
كنّا نجْتمع كلّ مرّة دون أنْ نتّخذ أيّ قرار لتنْفيذ أيّ عمليّة ضدّ القوات الأمريكيّة أو العراقيّة . نجْتمع، لنتأكّد من إخلاص المجموعة وانْضباطها. وكان "الشيخ الضاوي"، هوّ نفْسه من يُعلمنا بموْعد الاجتماعات ومكانها.
يبْدو وهْو يتنقّل في الأزقّة والشوارع بلباسه الفضْفاض الرثّ، وقبّعته المُتكلّسة بالغبار والأوْساخ، كمعْتوه لا يُعيره أيّ عابر أيّ اهْتمام، عدا الشفقة. بل لم يعد أحد يمنحها إياه... يسير كمتسوّل أو معتوه بين بيته وعتبة مسجد فجّره انتحاريّ شيعيّ ولم يبق منع غير واجهته المطليّة بالسواد. لما تبصره يتنقل حافي القدمين رثّ الثياب، لحيته كأنها عشّ عناكب يعلوها غبار وبياض ليس بياض الوقار بالضرورة، و لا يتردّد أبدا على أن يتوسّد عتبة مسجد أو حانوت أو رصيف. فحتّى الأطفال لم يعد يعيرونه أيّ اهتمام، فلكل مشاغله وهمومه. ولا سخريّة من متسوّل، فالشعب كلّه يتسوّل المال أو الشرف أو الكرامة.
مع ذلك يكمل مهمّته الهادفة ويواصل قيادته للمجموعة.
وفي كلّ مرّة نجتمع كان "حسين البنّا" حاضرا بيْننا، يسْرد علينا تموْقع الشرْطة العراقيّة، وتنقّلاتها ومواقعها.

كنا ثمانية، لا يجْمع بيننا غيْر الوطنيّة، وحبّ العراق. إضافة إلى أننا من نفْس شارع الأعظميّة، رغْم أننا لم نكن نحمل نفْس التوجّهات والقناعات والإيديولوجيات.
وكان "الشيخ الضاوي"، بنفْس لباسه الذي لا يغيّره، حتّى أثناء اجتماعاتنا.. كثيرا ما يُكرّر:
ـ دعوا اِنْتماءاتكم جانبا... أريد أنْ تضعوا العراق نصْب أعْينكم وفي قلوبكم.
ولمْ نكنْ ننْتبه إلى أهميّة هذه الجمْلة دائما، إلا متى اِشْتدّ الصراع بيْن الشيعة والسنّة. حينها فقط، فهمْنا أنّ المقاومة لمْ تنْتصر في حرْبها إلى الآن، بسبب هذا التشرْذم.
مع ذلك كانتْ خليّتنا مُلتزمة بمبدأ "الدفاع عن العراق"، وترْك الانتماءات جانبا. رغْم أنني كنتُ موظّفا بحزْب البعْث.. و"سرْكسْ" مسيحي له اِنْتماء شيوعيّ مع "لقْمان صاحبْ" و "باقر الربيعي". فيما ينْتمي "سليْمان عبْد العزيز" و "جواد الشريف" إلى حزب البعْث المُنْحلّ.
أمّا "حسين البنّا" فكان موظّفا، ولا يزال بسلْك الشرطة العراقيّة التي أسّستْها الحكومة العراقيّة إثْر سقوط بغْداد، وهو سنّيّ . عكس "عادل الطيّب" من أصل شيعيّ. وهو أسْتاذ جامعيّ بكليّة بغداد... ونحرص على مناداته بالدكتور أثناء حديثنا، لما يتمتّع به من قدرة على الخطاب والتواصل وتحليل الأوضاع السياسيّة، بأساليب فلسفيّة مُذْهلة. تجعلنا ننْتبه إلى خطابه دون قدْرة على مجاراته، بنفْس نسقه الفلْسفيّ.
في اجْتماعاتنا الأولى، كنا نلتقي لنتحاور ونرْصد مواقف التيارات الحزبيّة والمذهبيّة والشوفينيّة والمليشيات والفصائل و... لنمرّ على سياسات القادة، نشْرح أقوال الحكيم، وتصْريحات الصدْر، وتعْليقات المالكي و علاوي وخليل زاد... وصولا إلى خطابات بوش ورايس ورامسفيلد وبشار الأسد وأحمدي نجاد...
لأعود إلى بيْتي المُتربّع على الرماد والركام، أراجع آخر الليْل جمْلة النقاشات والمواقف والآراء... أعيد صياغتها وتحْليلها، ثمّ أحْتضن حُلْما بتدْمير آليّة عسْكريّة أو زرْع لغْم لقافلة أمريكيّة أو توجيه صاروخ لثكنة أو شاحنة أو كمْشة من الجنود... مع أنني شديد التحفّظ من اِسْتهْداف أفراد الشرْطة العراقيّة.
وقدْ كنتُ خلافا لبقيّة عناصر الخليّة، رافضا اِسْتهْداف المواطنين العراقيين في الشرْطة أو غيْرها. فيما يعْتبر البقيّة أنّ رجال الشرطة عملاء، ويخْدمون مصْلحة الهيْمنة الأمريكيّة.
وكان الدكتور "عادل الطيّب"، يُدافع عنْ موْقفه بالقول:
ـ إنّ هؤلاء لا يعْملون تحْت إمْرة حكومة عراقيّة شرْعيّة. وطالما أنّ الحكومة غيْر شرْعيّة باعْتبارها شرْذمة من البيادق، وتُحرّكها السياسة الأمريكيّة.. فإنّ كلّ منْ يعْمل معهم أو تحْت إمْرتهمْ، فهْو عميل يسْتحقّ التصْفيَة.
كان الدكتور مُقْنعا وثابتا في كلّ مواقفه وتحليلاته، عدا هذه... عدا اسْتهداف المواطنين العراقيين. ومع مُعارضتي له، إلا أنني لمْ أصرّح بموْقفي أمام كلّ أفراد التنْظيم الذين اقْتنعوا بصحّة تبْريره، مخافة أنْ أُخوَّن أو أُطرَد منْ تنظيم "مُجاهدي الأعظميّة".
كنتُ أجْترّ كلّ هذه المواقف وتلك، وأنا أخْلد للنوم، مُحتضنا مسدّسي الذي ورثْته عنْ نظام صدام حسين.
وفي ليلة من ليلي العراق الفحميّة المظلمة، بدا القصف يتضاعف وبوتيرة أشدّ عنفا و وحشيّة. حتّى انتابني إحساس أنها ليلة تشهد مخاض واقعة فاصلة.

وفي الأشهر الفاصلة التي سبقتْ إعدام صدام حسين، في ليلة صيف حارة، كان القصْف الأمريكيّ أشدّ وقْعا من أيّ قصف حضاريّ آخر... لم تهْدأ أصْوات الصواريخ وأزيز الطائرات العسْكريّة والمرْوحيات... ليلة لا تُشْبه كلّ ليالي بغداد، منذ احْتلالها. ولمْ أجدْ سببا واحدا يجْعلني أخْلد للنوم.

شغّلْتُ الراديو الصغير بجانبي، دون أنْ أشعل الفانوس النفْطيّ، وأرْسلتُ أصابعي تُفتّش عنْ علبة السجائر... أسْنَدْتُ ظهْري إلى ظهر السرير، وأشْعلْتُ سيجارة لتُعينني على التذكّر أو على النسْيان.

و فجأة .....

صعقني الخبر، ورجّتْني الكلمات المُنْبعثة من صوت أجشّ لقارئ الأخبار، وهو يتلو عناوين النشْرة:

"الزرْقاوي يلقى حتْفه في قصْف أمريكيّ على مخْبئه"

سحبْتُ نفسا عميقا من سيجارتي وأخْمدْتها بداخلي.

وأنا أسْحب جسدي من تحت الغطاء لأتربّع فوق السرير، مُحاولا الانحناء أكثر إلى الراديو للتأكّد من الخبر. وأكمل قارئ الأخبار:

-"... وقدْ سبق للزرقاوي أنْ أسس مع "أبي محمد المقْدسي" جماعة بيعة الإمام بمدينة الزرقاء سنة 1995، وقُبض عليه من قبل المخابرات الأردنيّة ليُودَع السجن، محْكوما عليه بخمْسة عشر عاما. لكنّه اسْتفاد من عفْو ملكيّ بعد أربعة سنوات، ليغادر الأرْدن في اتّجاه أفغانسْتان فاخْتفتْ أخباره. مع ذلك أُلْصقتْ به تهمة اغْتيال الدبلوماسي الأمريكي "لورنْس نومي" سنة 2002 .

وقد ظهر الزرقاوي بعد ذلك في العراق كزعيم لتنْظيم القاعدة، بعْد أنْ بايعه أسامة بن لادن، إلى حين قصف مكانه بعد عمليّة مخابراتيّة أمريكيّة أردنيّة ."

مددْتُ يدي بتشنّج وخوف لأكتم صوت جهاز الراديو، غير مُسْتوعب للحدث ولا مُصدّق. وفي الحقيقة لم أكنْ من مُناصريه ولا من مُناصري تنْظيم القاعدة، مع ذلك كنتُ مُتعاطفا معه، لأنّه ضدّ الأمريكيين.. أنا مُسْتعدّ للتحالف مع الشيطان، إنْ كان سيساعدني على تحْرير العراق.

ألْقيْتُ سيجارتي على مربّعات الغرفة، ودسْتها بساقي دون أنْ أنْتبه إلى الألم الذي ألْحقه بقدمي... مددْتُ يدي لأتناول سيجارة أخرى وأشْعلها وأحاكيها:

هل المقاومة في طريقها إلى التصفية بمثل هذا الشكل؟

هلْ قَدَرنا أنْ نموت، إمّا فقراء أو مُضْطهَدين من حكوماتنا أو مُهانين من الدول الطاغية؟

هل الاِحتلال فعلا أرْحم من طغْيان صدام حسين؟ أمْ أنّ هذا الأخير أرْحم من الاِحتلال الصليبيّ؟ ثمّ من نُقاوم؟ لمنْ نوجّه أسْلحتنا؟ من هوّ العدوّ؟ لماذا متى؟ كيف؟ أين ؟

كلّها أسْئلة لا زالتْ تتخبّط في أحْشاء مخيّلتي، دون أنْ تجد ترْتيبا أو إجابة أو شرْحا.. كنتُ فقط أطرح على مُخيّلتي أسئلة ليْستْ قادرة على الإجابة عنها أو اسْتيعابها.

.....

على غيْر العادة، ودون تحضير مُسْبق جاءني طرْق على باب بيْتي المكْشوف من جوانبه الأربعة. كان طرْقا خفيفا ومُنْتظما، كقرْع حبّات الخرَز و هي تسْقط متتالية على الإسفلت.

وحينها حضرتْ حُفْرة صدام حسين ومخبأ الزرقاوي والقوات الأمريكيّة والخونة والجواسيس وأبو غريب و ...
لمْ أسْتوعب الطرْق جيّدا، لذلك كتمْتُ أنْفاسي، وفتحتُ نافذة التنصّت على آخرها.. تتالت الطرَقات، فأجبْتُ بارْتباك وخوف:
ـ منْ ...؟
ـ حمورابي..

عادتْ قطرات الدم لتتجمّع في وجْهي، وعادتْ إلى قلْبي دقّاته وعاد النبْض...
"حمورابي".. إنه الشيخ الضاوي.
"حمورابي"... الشفرة السريّة لنقْل أخبارنا وإبلاغنا بمواعيد اجتماعات التنْظيم وتوقيته.
أجبْتُ:
ـ حاضر... حاضر...
أشْعلْتُ الفانوس، وتحسستُ مسدّسي من تحت وسادتي، مخافة الخيانة. واتّجهْتُ إلى الباب أفتحه، بعْد أنْ أزحْتُ قطعة الخشب التي كانتْ تُعينه على الصمود.
دخل "الشيخ الضاوي" محمّلا بحذره وانتباهه، بعْد أنْ أطلّ من الباب على الشارع، وقدْ دسّ جسْمه في فضاء الغرفة.
أوصدَ الباب، ودون أنْ يجلس، قال بحزْن بادٍ على ملامحه الراقصة على ضوء الفانوس:
ـ هل سمعْتَ آخر الأخبار؟
ـ بالطبع (وبِأسى) أسْتشْهد الزرقاوي. مع ذلك لستُ مصدّقا الخبر .. ربما تكون مجرّد دعاية للاسْتهلاك السياسي.
ـ لا يهمّ ... مهما كانت الأسْباب، سنلْتقي بعْد ساعة بنفْس المكان.
هناك أشْياء طارئة ولا بدّ من مناقشة بعض المسائل... واضح ؟
ـ آه نسيت أن أقول لك أنّ عادل الطيب كان معي في البيت قبل دقائق، وقد دار نقاش بيننا وتعالت أصواتنا، وكدنا أن نتعرّى.
ـ ما المشكلة؟
ـ تعرف أنّ رجال الفلسفة ربّما لهم مواقف معادية من الحركات الاسلاميّة.
ـ تقصد اليسار؟
ـ تماما.. قال لي بالحرف الواحد "الزرقاوي ككل الانتحاريين جميعا ينشدون جنّة موهومة".
ـ دعك من هذا يا شيخ، نحن لا نشكّ في وطنيّة عادل الطيب، رغم قساوة خطابه.. ليس هنا المجال للحديث حول الخلافات... علينا برصّ صفوفنا الآن، عد وسألتحق بك.
خرج متخفيا كشبح، فيما أوصدتُ الباب بهدوء وحيطة.

.....
حضرتْ بذهني كلّ هذه الأحداث، وأنا لا زلْتُ ممدّدا على ظهْري كخنْفساء أثقلها ظهرها.. لا زلْتُ ممدّدا بنفْس الغرفة التي جمعتْني "بميلود عبد القادر" و"أمير التوم" و "إيراد الحاج".
كان كلّ واحد منّا، مُلْقى في زاوية ينْبش أوراق ماضيه، ويفتّش في حاضره عنْ صوَر وأحداث يتزيّا بها أو يبْسطها أمامه كنبْراس يُنير له الدرْب أكثر.

لمْ تُغْمضْ جفوننا، ولمْ يعدْ لنا ما به نوشّح سهرتنا... رغْم أنّ كلّ واحد منا له في جعبته ما يسْتهْلك أطنانا من الورق ووذْيانا من الحبْر. غيْر أنّ محاسبة الذات، والحديث معها ومُحاورتها وسؤالها وتعْريتها... كان ضروريا لكلّ واحد منّا.
تتفرّس في العيون والملامح، فلا ترى غيْر الحيْرة والقلق... ترى النقْمة والقيء والكفْر بالواقع العربيّ المتشظّي... أقول "العربيّ"، ويقول ميلود وأمير: "الإسْلاميّ " ... والنتيجة واحة.
فقط كان "أمير التوم" ثابتا ورصينا، ولا يحرّك نظراته في المدى. فلا تبْدو عليْه الحيْرة والقلق... ربما بسبب جرعات التجارب التي شربها أو مصاعب الجبال والأسْلحة والمعارك التي خبرَها.
بقينا على حالنا تلك، ثلاثة أيام ننام ونصْحو على العمليات الجهاديّة وأخبار الإخوان والساسة والوضْع العراقيّ والأفغانـيّ وحال الحكومات الكرتونيّة والبوليسيّة والعسْكريّة والكافرة والمسْتكْفرة...
ننام ونصْحو.. دون أنْ نبْرح أمْكنتنا، عدا لقضاء حاجة بشريّة أو للقيام للصلاة.
ولا أحد منا يُسْمح له بالخروج من المنْزل غيْر إيراد الحاج.. يخْرج ليغيب ساعة أو أقلّ بكثير، ويعود مُحمّلا بالخبْز وبعْض الخضار، وبصحف سوريّة ودوليّة، لمتابعة آخر الأخبار. وكنا حريصين على اقْتناء جريدة "البعث" السوريّة، لرصْد آخر الأخبار الداخليّة.
في اليوم الرابع بعْد صلاة الظهر، غادَرَنا إيراد الحاج كعادته، فيما بقينا جلوسا، نُناقش تأثير انْتصار حزْب الله على الكيان الصهيونيّ.
علّقْتُ على الحدث:
ـ هذا انْتصار للعرب لم يتحقق منذ زرع الكيان الصهيونيّ في المنطقة. ومن الضروريّ الافْتخار بهذا النصْر ودعْمه.
أجاب أمير التوم، برصانته المعْهودة وبلهْجة أقرب إلى المصْريّة:
ـ هو انتصار لأمّة الإسْلام... انتصار لكتاب الله وسنّة رسوله... هو بداية انتصار كلمة الله على الأرض.
قاطعه ميلود عبد القادر بتشنّج، حاول أنْ يُخفيه:
ـ عفْوك يا شيخ أمير... أنا أعارضك فيما ذهبْتَ إليْه... ما قامتْ به المقاومة اللبْنانيّة، هوّ انْتصار لا يمْكن أنْ ننسبه لا للعرب ولا للمسْلمين...
قاطعه أمير التوم:
ـ فهمْتُ مقصدك.. تقصد أنه انتصار للشيعة ؟
ـ بالطبع... هو انتصار للهلال الشيعيّ... انتصار لإيران الفارسيّة..
ـ طيّب... لو خيّروك بيْن أنْ تكون شيعيا أو يهوديا، ماذا تختار؟
ـ (لم يُجبْ)
ـ لم تُجبْ... مع ذلك أوضّح لكَ التالي: لا بدّ في كلّ مرْحلة جديدة من استراتيجية جديدة... يعْني للحروب تكتيكها الخاص.
(طأطأ رأسه وأكمل)
كلنا يعْلم أنّ الشيخ أسامة بن لادن، تعامل مع الأمريكيين للقضاء على المُلحدين السوفيات ... وكان وقتها تعامل حتّمته المرحلة. لأنّ الخطر الشيوعي حينها أهمّ وأكبر من الخطر الأمريكي أو الأوروبيّ أو المسيحي.

أما الآن ـ وبعد دحر العدوّ السوفياتي عن أفغانستان ـ غيّر التنظيم قواعد اللعبة، ووجّه فوهة بنْدقيّته للأمريكان واليهود. لا يهمّ من يُحارب، الأهمّ أنْ ينْدحر العدوّ.
(مُوجّها إليّ كلامه)
أليْس كذلك يا أبا مصْعبْ؟
أجبْتُ مُساندا موْقفه:
ـ أوافقكَ الرأي... مع ذلك لمْ تنْتبه الأحْزاب والفصائل الفلسْطينيّة لمثْل هذا الوقف. اِنْخرطتْ في صراعاتها الداخليّة، بيْن حماس ومنظّمة التحْرير، واَسْتنْزفتْ كامل قواها التي من المفْروض أنْ تُوظّف ضدّ النازيين اليهود.
علّق ميلود، وكأنّه يُراجع موْقفه بعْض الشيء، وهو يمْسح لحيته الطويلة:
ـ ما يهمّ الآن، هوّ أنْ ينْتبه الإخوان إلى خطورة المرْحلة.. أنْ ينْتبهوا إلى المشاريع الأمريكيّة و الصهْيونيّة التي تُمرّرها الحكومات العربيّة في المنْطقة.
لهذا لا زلْتُ أحترم حكومة دمشْق إلى الآن، رغْم كلّ شيء. فهْي صامدة حتّى هذه اللحظة، رغم السقوطات المتتالية.
ـ الصمود لا يكفي طالما أنّ الشعب السوريّ يعاني الذلّ و الهوان.
طال الحوار بيننا حول حزْب الله وفلسْطين وسوريا ولبْنان و.... ولمْ ننْتبه إلى تأخّر إيراد الحاج لمدّة فاقتْ الساعتيْن.
علّق "ميلود" حائرا:
ـ أتمنّى من الله عزّ وجلّ أنْ يكون المانع خيْرا.. إيراد تأخّر كثيرا هذه المرّة.
ردّ أمير التوم:
ـ إنْ شاء الله يكون بخير ..
(أغمض عيْنيْه، ورفع يديْه إلى السماء داعيا)
اللهمّ أنْصرْه واَحْمه.. اللهمّ ألْق على أعْينهم غشاوة واَجْعلهم لا يُبْصرون.. اللهمّ بكَ نسْتجير، فأجِرْه.. آمين يا ربّ العالمين.
فردّدنا بعده:
ـ آمين يا ربّ العالمين.

وأطبق الصمْتُ المَشوب بالخوف والارتباك... لمْ نُضفْ كلمة واحدة بعْد "آمين".
انْطوى كلّ واحد إلى داخله يُفتّش في جيوب ذاكرته عنْ معاني الخوف والشكّ والريبة.
وإنْ كان "أمير التوم"، لمْ تظهر على تجاعيد وجْهه تلك الحيْرة.. كان يتمْتم على الأرْجح بتلاوة القرآن لما أبْداه من خشوع وثبات.
ومثلتْ بذهْني لحظة القبْض عليّ بحيّ الأعظميّة ببغْداد، بنفْس غرْفتي المُحاطة بالخراب و الركام.
لحظتها، لمْ يُسْعفْني الوقْتُ بسحْب مُسدّسي، ولا حتّى نفْض الدهْشة عـنْ مُخيّلتي. رغْم أني لمْ أكن أغطّ في نوم عميق.
وكان الفنان الشيخ إمام، يُلْقي ببحّته المعْهودة أدْران الوجع العربيّ وقيئه:
شيّدْ قُصورَكْ عَ المزارع
منْ كدّنا وعرقْ أيدينا
والخَمّارات جنْبْ المَصَانعْ

والسّجْن مَطْرَحْ الجِنِينهْ
واطْلقْ كلاَبكْ فِي الشَّوارعْ
واقْفلْ زَنَازينكْ عَلِينا

.....

لحظة واحدة، كانتْ كافية لخلْع باب الغرْفة واحْتلالها. دون أنْ تتمكّن أصابعي من الوصول إلى مُسدّسي..
لحظة واحدة، كانت كافية لتوجَّه نحو صدْغي عشْر فوهات مدافع رشاشة. ولم أسْتطع التكهّن بعدد الفوهات خارج البيت الآيل للسقوط.
لحظتها ما زال الشيخ الضرير يصْدح:
أحْنا اتْوجعْنا واكْتفينا
وعرفْنا مينْ سَببْ جراحنا.
لمْ أسْتطع لحظتها ـ تحت الإنارة الخافتة للفانوس ـ أنْ أميّز الأمريكيّ من العراقيّ. كيف لي أنْ أميّز، وأنا كالأرنب تحت الإنارة السّاطعة ؟ كعصْفور جريح تفْصله عنْ مخالب الصقْر دقّة قلْب واحدة.
تقدّم أحدهم، و بلهْجة عراقيّة واضحة وبذيئة:
ـ تسْمع الشيخ إمام أيها الكلب ؟ أليْس الأجْدر بكَ أنْ تسْتمع لأسامة بن لادن أو الزرقاوي أو السيّد قطب؟
لمْ أحرّك ساكنا، ولمْ أجبْه عن تهكّمه. فكلّ الإجابات لنْ تكون مُقْنعة. ولنْ تُثني بقيّة الغيلان الأمريكيّة والعراقيّة عنْ العبث بالغرْفة، وتحْويلها إلى مزْبلة.. أساسا لا شيء بها غيْر الأثاث القديم وملابسي، وصورة زوجتي "سها" وابْني "عاكف"، وصورة وحيدة للقائد صدّام حسين، التي لمْ أنْتبه إلى أنّه خُلع من السّلطة، ولمْ أخْلعْه من الجدار.
أحد رجال الشرطة العراقيّة، فكّ الصورة بعنْف من الجدار، وألقاها على الجدار المقابل فتهشّمتْ. فيما أفرغ الثاني ثلاث رصاصات في الصورة، وكأنه يتمنّى أنْ يُفرغها في صدام مباشرة.
فتّشوا الغرْفة، فلمْ يعْثروا على شيء، عدا مسدّسي الذي يحمل رقما، يُشير إلى الشرطة العراقيّة قبل سقوط بغداد.
تسلّمه أحد رجال الشرطة.. قلّبه بإعجاب، ودسّه في جيْبه. فيما تكفّل البقيّة بتقْييدي ووضْع عصابة على عيْنيّ، وقادوني إلى المجْهول.. إلى أبو غريب.
وأنا في الطريق كنتُ أسْأل نفْسي، هل تُهمتي ستكون الانتماء إلى حزب البعث المحظور أم تنْظيم القاعدة الإرهابي ؟ لا فرْق، فالنتيجة واحدة.

.....
فيما لا زلْتُ أمرّر شريط الذاكرة، دخل "إيراد الحاج" إلى المنزل، مُسْتعملا مفتاحه لفتْح الباب الخارجي.
كانتْ ملامحه تُخْفي خبرا ما.. ولم تكنْ مشْيته ثابتة كعادتها.. ألْقى الصحف على الأرض، وواصل سيْره نحْو المطبخ ليضع ما اقْتناه من خُضر هناك.
قطعْنا حبال أفكارنا وانْتبهنا.. والنظرات تبْحث عن المشْهد الذي يمكن أنْ تُعلّق عليه حيْرتها.

حلّ "إيراد" بيننا.. أشْعل سيجارة كان الوحيد المسْموح له بتدخينها، فهي من الموبقات كما يقول الشيخ أمير التوم و بارْتباك فاضح ـ رغْم الابتسامة التي حاول أنْ يرْسمها على وجْهه ـ وراح يقْطع مُربّعات الغرفة بخطوات مُرْتبكة وحذرة.. تسمّر فجأة.. سحب نفسا عميقا من سيجارته... التَفتَ إلينا مُحدّقا في كلّ واحد منّا ونطَقَ:
ـ وصلتْنا آخر التعْليمات.
ردّ الشيخ "أمير التوم ":
ـ هذا سبب تأخّرك، أليْس كذلك ؟
ـ وهو كذلك..
ـ إذن، أين المهمّة القادمة؟
ـ .....
ـ لماذا هذه الحيْرة ؟ نحن سخّرْنا لخدْمة الإسْلام والمسْلمين .. سننفّذ مهمّتنا أينما كانتْ وكيْفما كانتْ.. وسيُسدّد الله خُطانا ويحْمينا بعونه.
ـ (سحب نفسا عميقا) ونعْم بالله.. المهمّة القادمة باريس.

انْتفضْتُ كطائر الفينيق من رماده، وتساءلْتُ:
ـ ما لنا وباريس ؟ لماذا باريس ؟ لماذا أوربا ؟ نحن نُحارب في العراق وفلسْطين وأفغانسْتان.. ما الذي يدْفعنا للذهاب إلى أوربا؟
ردّ "إيراد":
ـ تلك أوامر القيادة أبا مصعب.. تعْرف أننا ننْضوي تحت لواء تنْظيم دوَليّ، ولا بدّ من التقيّد بالأوامر.. لذلك..
أراد أنْ يُكمل حديثه، غيْر أنّ إشارة من "أمير التوم" بطرف عيْنه "لإيراد"، جعله يتوقّف عن الحديث. وفهمْتُ أنّ حرجا ما سَقط من السقْف على رؤوسهم.. كأنني خرجْتُ عن التنظيم بسؤالي ذلك.
فهمْتُ لحظتها أنني لا بدّ أنْ أنفّذ الأوامر لا غيْر.. لا أقرّر عوضا عنْ أحد، ولا حتّى عوضا عن نفْسي.. لا أسمع.. لا أرى.. لا أتكلّم.
أنا إذن تلك الآلة التي تبَرْمَج لتنْفيذ مهمّة وكفى. و لكنني لمْ أتْرك ـ بسؤالي ذلك ـ لإيراد إمكانيّة إكمال حديثه عنْ دواعي الذهاب إلى باريس؟ وماذا سنفْعل في باريس؟ ولماذا في هذا التوقيت؟
لماذا ذهب بيَ الظنّ، أنني سأحارب الجيْش الفرنسيّ أو الشعب الفرنسيّ ؟ لماذا لا يكون خروجنا من دمشْق إلى باريس هربا أو إستراتيجية أو تكتيكا ما لا بدّ من إتقانه؟
مع ذلك اسْتغْربْتُ، لماذا لم يسأل أيّ من "ميلود" أو "أمير" عن سبب خروجنا إلى باريس؟ لماذا ؟ هـل تراهما فهما الدور المنوط بعهدتنا، ولم أفهمه لقلّة خبْرتي بالتنظيمات والجهاد؟
حاولتُ إصلاح الخطأ، بأنْ كشّرْتُ عنْ أسْناني مُبْتسما، وألقيتُ ملاحظتي دون أنْ أدرك عواقبها:
ـ كم تمنّيْتُ لو كانت المهمّة القادمة في تلّ أبيب.. هذه أمنيتي.
كنتُ وما زلْتُ أدْعو الله أنْ يحققها لي.

لحظتها أدركْتُ أنّ الطُّعْمَ الذي ألقيته، كان كافيا ليغفروا لي خطئي أو سوء فهمهم لي ..علّق الشيخ "أمير التوم":
ـ الحمد لله.. لمْ تُخيّب نظري فيك. خبْرتي بالرجال في هذا العمْر لا تسْمح لي بأنْ أخطأ في تقييمهم.
اسْمعْني يا ابني.. أقول لك يا ابني هذه المرّة، لأنني مطالب أنْ أعمل خبْرتي وشيخوختي كيْ تفهمني.
ـ مهما كبرْتَ، ستبقى شابا على الدوام، وسنبْقى في حاجة إلى خبْرتكَ.
ـ لا يهمّ كلّ هذا المديح.. المهمّ يا ابني أنْ تعْرف ماذا تُريد من الدنْيا الفانية ؟ ولماذا أنتَ في هذه الدنْيا ؟ ولماذا أنتَ خليفة الله في الأرض؟
نحن يا ابْني، سخّرْنا أنفسنا طمعا في الآخرة لا في أموال الدنيا.. وأنتَ تعْرف أنّ شيخنا أسامة بن لادن، كان من أكبر أثرياء المسلمين. لكنه فضّل أنْ يسخّر ماله ذاك لخدْمة الإسلام، ولخدمة الجهاد ضدّ الكفار و الملحدين. ولو اخْتار غيْر ذلك، لأمكن له أنْ يعيش في بذخ لا حدود له.. لكن الدنيا كالجسْر نبْنيه لنعْبر إلى برّ الأمان.
أردْتُ أنْ أبرّر سوء الفهم:
ـ يا شيخنا أنا..
ـ (قاطعني) لا داعي للتبْرير.. نحن سنعْبر معا إلى أوربا. وإذا أردْتَ الانسلاخ، فيمْكنك أنْ تبْقى في دمشْق.
(موجّها كلامه إلى إيراد)
متى سنغادر ؟
ردّ "إيراد"، وهو لا يزال واقفا:
ـ فجرا... الثالثة صباحا نتوجّه إلى الحدود التركيّة، ومنها إلى اليونان بحرا... ومن أثينا سنذْخل باريس عبْر البرّ.
تدخّل "ميلود عبْد القادر"، مُوجها كلامه إلى إيراد:
ـ وأنتَ..؟
ردّ " إيراد " بأسف ترقْرق في حدقتيْه:
ـ أنا سأبقى في دمشْق.. هذه أوامر القيادة.. من الممكن أنْ أسهّل اِلتحاق بعض الإخوان بكم في الأيام أو الأشهر القادمة.
ـ وهل ثمة من سيلْتحق بنا؟
ـ هذا وارد.. ثمّ أنني إذا غبْتُ عنْ دمشْق، بعد انتهاء العطلة المرضيّة التي أتمتّع بها، فإنّ ذلك سيُثير الكثير من الشكوك حولي، وقدْ تتحرّك الكثير من المياه الراكدة.
المهمّ علينا الاستعداد من الآن، حتّى نلتزم بالوقْت و بالتعليمات.
(طأطأ رأسه وصمت قليلا وأكمل)
سأبقى مع "أبي مصعب"، وربما هو من سيلتحق بكم، هذه فرضية قد لا تصحّ.

الفصل السادس

المثقف يحرق أصابعه

بشارع الحبيب بورقيبة بالعاصمة، كنتُ ألازم اليسار، أمْشي بخطوات بطيئة وغيْر واثقة.. أنْفث دخان سجائري في الأشجار التي فقدتْ بريقها. لم تعدْ الأشْجار تحْتفي بالطيور الراقصة كلّ مساء، ولا بالصحف اليوميّة وبائعي الورد والشعراء الذين يبْحثون عنْ بطاقة بريديّة لحبيباتهم أو وردة لكسْب ودّ مومس أو اقْتناء كتاب أو جريدة لإكمال مشْهد البروتوكول الثقافيّ..
لا شيء من ذلك..
أرى الشارع مكتظا.. راقصا.. فرحا.. رغم المهمّشين والشعراء والبوليس السياسيّ.
لا شيء من ذلك..
بات الشارع خاويا ووحيدا يشكو للطيور المُحلّقة فوق أرْجائه، صنيعة الإنسان في تحويل الجَمال إلى قُبْح.
كنتُ أرْصد المارة دون الانتباه إلى ملامحهم، عدا ما تُخلّفه أنثى من عطر كحوليّ بأنفي، أو ما يُلقَى في الأبصار من لحم غضّ يكاد يرْتمي عليك ليفْترس نزْوتكَ.
توقّفْتُ قليلا أمام مقْهى باريس.. وصلتْني رائحة الجعة واسْتحْضرْتُ موعدا كنتُ عقدْته مع " لطفي". الأكيد أنه ينْتظرني الآن بمقهى "الراندفو".. هل أخلف موعدي؟ أم أكسر شهوتي؟
ماذا لو راوغْتُ الوقْتَ، فشربْتُ بعْض الكؤوس، وأسْرعْتُ لملاقاة رفيقي؟
عرّجْتُ على المقْهى.. انْزويْتُ وحْدي في ركن دون أنْ أنسى وضْع علبة السجائر على الطاولة.
أسرع النادل نحوي، ليُغيّر منفضة السجائر، ويمْسح الطاولة ـ قال:
ـ صباح الخيْر.. تفضّل.
ـ ثلاث بيرّة من فضلك.
أشْعلتُ سيجارتي، ولم يتأخّر النادل كثيرا.. سكبْتُ كأسي الأولى وسقيْتُ بها دمائي الظمأى، وعقْلي الشارد. كانتْ وهْي تزحف في شراييني، تُثير تقزّزا حلوا في مسام الجلد.. فتنْتابني قشعْريرة خفيفة، نفضتْ ما بداخلي من روتين الجسد المتهالك.
سحبْتُ كنّشي من جيْبي الداخليّ، ومددْته على الطاولة، علّي أخطّ بعْض التجاعيد أو أضمّخ وجْه أوراقه ببعْض الحبْر الفاتر.
سكبْتُ الكأس الثانية.. سحبْتُ نفسا من سيجارتي بكلّ الغلّ الذي بداخلي، وتركْتُ لظهْري فسحة للاتكاء على ظهر الكرْسيّ الخشبيّ الأشبه بالأريكة...
كان الإرهاق يأخذ منّي فرحي بهذا الصباح.. أحاديث البارحة مع "لينا" وأختها "ماجدة" والكلام عن فلسطين والعمليات الجهاديّة.. كانتْ ليلة مرهقة. لمْ أبكِ.. لكنّ بكاء "لينا" ، نَقَلَ مُخيّلتي القاصرة إلى الأحياء القصديريّة والمخيّمات والفقر الفلسطينيّ، وتكرّش الساسة وأصحاب الصفقات.
يقينا، لو خرج هذا الشعب من المصْيدة اليهوديّة، سيكون أعظم شعب في التاريخ. شعب افتكّ بامْتياز شهائد الرحيل والترْحال وجرّب بلدانا عديدة، وتنقّل عربيّا وأوروبيّا وآسيويا ...
الفلسطينيّ يتقن عديد اللغات، وامْتزجتْ حضارته بحضارات عديدة.

أشْعلتُ سيجارتي ثانية، مُحاولا نفْض هذا الغزْو الفلسطينيّ لذاكرتي المُرْهقة، فحضر درويش:

كمْ أنتَ حرّ أيّها المنْسيّ في المقْهى
لا أحد يرى أثر الكمنْجة فيكَ
لا أحد يُحمْلق في حُضوركَ أو غيابكَ
أو يُدقّق في ضبابك إنْ نظرْتَ
... إلى فتاة وانْكسرْتَ أمامها

بالفعْل لا أحد يُحمْلق في حضوري، غيْر..
وكأنّه كان يُفتّش في داخلي.. اِقْتَرَب منّي بهدوء وثبات، ثمّ جلس قُبالتي:
- هل أجْلس ؟
- (دون اهتمام) تفضّل.
لمْ أعرْه اهتماما، رغْم أنّ قولة سارتر حضرتْ بعنْف، كمنْ يُلقي زجاجة حارقة على حقل من الورد:
"الآخر هوّ الجحيم".
لماذا اختار هذه الطاولة تحديدا؟ لماذا أنا؟
حمْلقْتُ في الورقة البيْضاء بالكنّش، وشرعْتُ أخطّ عليْها أشْياء كخطوط مائلة أو مُنْحنية .. دوائر.. مربّعات.. سطورا.. نقاطا.. أحرّك القلم على الورقة، دون انتباه أو إدراك بما أرْسم أو أخطّ..
علّق الجالس قبالتي:
- هل أنتَ كاتب ؟
- لا
- إذن أنتَ صحفي؟
- لا
- هل تُقيم بالعاصمة؟
- (بسخرية) لا.. أقيم في جنوب الصومال.
ودون أنْ يمْنح لعقْلي مُهلة لهضْم تعْليقي الفجّ، ردّ بانْضباط:
- بطاقة التعْريف.
-(ضحكْتُ دون أنْ أفتح فمي) لا أعتقدْ أني أملك بطاقة تعريف.
- إذن، تفضل معي.
- إلى أين ؟
- سأعْلمكَ لاحقا.
- ومن سيادتكم ؟
- بوليس..
- .....
حمْلقْتُ فيه بعيون خاوية تتّقد فيها قطرات الجعة القارصة، دون أنْ أبْدو مسْتغربا من مشْهد يتكرر باسْتمرار.

فيما سحب محفظته الصغيرة، مُثبّتا أمام بوْتقة إبصاري بطاقته المهْنيّة، موشاة بنجْمة ذهبيّة ساطعة.. خلتها لحظتها بستّة ضلوع، فعزمْتُ على الاحتجاج لأتراجع وألقي له بطاقة هويّتي على الطاولة.
قلّب البطاقة بتمعّن، مُراوحا بصره بيْن صورتي المُثبّتة على البطاقة ووجْهي المُثبّت فوق هيكلي. وقال بتهكّم أو اسْتغراب:
ـ أنتَ إذن موظّف ؟
ـ (بسخرية) موظّف ؟ ما رأيك ؟
ـ لحْيتكَ لا تليق بموظّف.. بهذه الشكل ستكون عُرضة للتتبّعات. (مدّ لي البطاقة، ونهض)
تحسّستُ لحْيتي بأناملي، فحضرتْ "غوانتانامو" وعمر عبد الرحمان.. مع ذلك يتباهى الماركسيّ بلحْيته.
أيّ مُفارقة هذه؟
قلبْتُ ورقة الكنّش، وحاولْتُ أنْ أرْسم وجه ماركس وبجانبه أسامة بن لادن.
حمْلقْتُ في لحية كلّ واحد منهما فلم أجد فرقا.
إذنْ، كيف يعْرفون أنّ هذه اللحية لماركسيّ، والأخرى لإسلاميّ؟
ألقيْتُ القلم بإهمال على الطاولة، ومزّقْتُ الورقة، لأكتب:
ـ "لحية بن لادن هيّ لحية ماركس".
لحظتها، وأنا أكتب الجملة، فكّرْتُ أنْ تكون عنوان مقال، ربما أشرع في كتابته ونشْره بإحدى الصحف التونسيّة. وإنْ كان هذا المقال سيُثير حفيظة "لطفي"، وسيتّهمني بأنني تنازلْتُ عن أفكاري التقدّميّة أو ربما..
حينها رنّ هاتفي الجوال:
ـ ألو صباح الخير لطفي.
ـ صباح الورد والياسمين.. (قالها بتهكّم) مواعيدكَ دوما دقيقة.. الساعة العاشرة والنصف.
ـ نصف ساعة تأخير لا تغيّر العالم.
ـ بسرْعة أنا في انتظارك.
ـ لطفي.. رجاء لا تقطع عليّ خلوتي.. أنا بمقهى باريس. حاول أنْ تأتي، وإلا لا تنْتظرْني.
ـ (بدهاء كثيرا ما يغلّف كلامه) إذن أنتَ مع إحدى الجميلات
ـ لا.. أنا بصحبة البيرة.. حاول أنْ تأتي.. أحتاجك.
ـ نصف ساعة، أكون بجانبكَ.

أكملتُ المكالمة وأعدْتُ الجهاز إلى جيْبي، وكانتْ السيجارة المُتّكأة على حافة المنْفضة قدْ خمدتْ أنفاسها إلى الأبد.. دفعْتها بسبّابتي إلى قاع المنْفضة، وأشْعلْتُ أخرى.
أكملْتُ القارورة الثالثة، مُحاولا أنْ أمْسك اللحظة الهاربة.. أنْ أُدوّن على هذه الأوراق نزقي وفوْضايَ.
هيّ اللحظة وحْدها تخيط لنا أزْرار أصابعنا.. شروخ لغتنا الهاربة إلى النهر: إلى دجلة مثلا .. الفرات.. الليطاني.. على علْمنا أننا "لا نسْبح في نفْس النهر مرّتيْن".
... نبْحثُ عنْ لغة، بها نضمّخ أوراقنا وهزائمنا وتصدّع أجسادنا وعقولنا..

قدْ لا نجد اللغة والكلمات، مع ذلك ننْتشي باصْطيادها في حلم اليقظة. لذلك نتْركها للصدْفة، علّها تحْضر دون إذن.. أو تدْخل بيوتنا عنْوة.

أنا الآن أبحث عن المعْنى في كؤوس الجعة ومنفضة السجائر والبوليس السياسيّ والسمكات الميّتة قرْب نافورة شارع حكوميّ.. أبحث عن المعنى في الوردة المُتثائبة على قارعة الطريق.. في نجْمة تُفتّح غوايتها للسكارى الساهرين، تحت فوانيس الشوارع.. المعنى، هذا الذي ـ يهمس لي شاعر ـ أنني لنْ أجده.

إذن لماذا البكاء يا صديقي؟ لماذا نُوشّح جهدنا بمعاطف البحث عنْ لذّة زائلة، أو غائبة؟

إنني لا أرى ما يسْتوجب البحث والبكاء.. على علْمي باحْتراق أصابعنا المُعدّة للإنارة، وسقوط زقْزقاتنا صرْعى في فخاخ الثعالب.

إنني لا أرى ما يسْتوجب البكاء أيها الشاعر.. أيتها الرائعة "لينا".. أيها العظيم "إيراد الحاج " أيها الرفيق " لطفي " ... لا أرى ما يسْتوجب البكاء.

فرغْم احْتراق حواف الجهات والخرائط المعدّة سلفا للتّعديل.. أرى النار في موقعي، تأتي على كلّ شيء.. أراها ترْقص كالأشباح النازلة من كواكب أخرى. تأتي على الزرْع والحجر والبيوت والعباد والأشجار.. تأتي على الملوك والحكام والجيوش والدول والبحار.. أراها إسفلتا يتّقد غليانا، كأنه يوم الحشْر:

اللهمّ ابتدأ التخْريب الآن
فإنّ خرابا بالحقّ
بناء بالحقّ

هكذا لغّ الشاعر بمقهاه تلك بدمشْق.

وأما الآن، فأرى النمل يزْحف إلى أفواه الموتى، بعد معارك الخبْز والكرامة والحدود واللاجئين والمخيّمات والشرف و.. و..

منّا منِ يُدْفن خارج المعْركة، ومنّا من يَنْبُتُ في أفْواهنا قصائد أو أغاني أو ينبتُ قضبانا لشدّنا لأعماق الطين.

أنا الآن أحادث القلم الممدّد على عجْزه.. هو الكلام المضمّخ برائحة الخازوق.. هو الكلام المُتسرْبل بما يُوشّح قبور الصبْية الطيّبين، ماتوا اخْتناقا بروائح الفسْفور الأمريكيّ والصهيونيّ.

هكذا يموتون، ونموت أحياء وغرباء على طاولات الخمر أو على أوراق الحبر أو على العجز.. هنا أو هناك..

.....

وصل النّادل إلى الطاولة، لرفْع القوارير الفارغة، قلتُ:

ـ اثْنتان من فضلكَ.

وشرعت أشاغل الورقة تكْملة لعنْوان: "اللحْية عند بن لادن وماركس"، وكتبْتُ:

ـ "الصراصير مسالمة جدّا.. تضْحك كثيرا مثْل جهْلنا، لكنّها تضْحك بخوْفٍ أشْبه بخوْف لحْية من العلْمانيّة.

الصّراصير هنا، تجْتهد لبناء مسارح للنباح الحضاريّ، وسُدودا تُعين مجاري الصرْف الصحّيّ على إغراق المدن الفاضلة.

بالطبع، لا مدن فاضلة الآن وغدا ـ مع ذلك فهْي تتوقّع ثورة الشعراء والفلاسفة واليساريين والإسلاميين والحقوقيين.. كأنْ يحْرق شاعر أصابعه الكريستاليّة، إيذانا

بالاعتصام، كما تحرق المنظمات المُناهضة للعوْلمة إطارات السيّارات في الشوارع العامة .. كأنْ يؤسس أحد الفلاسفة نظريّة في الإرهاب، على غرار فلْسفة القوّة أو فلسفة الجسد أو فلسفة الوعْي.. كأنْ يهْدم يساريّ مصْنعا لشركة متعدّدة الجنْسيات.. كأنْ يُفجّر إسلاميّ نفْسه بحزام ناسف، أمام إحدى السفارات المحْشوّة بالمُؤامرة..
تساءلْتُ: لماذا لمْ أسْمع بانْتحاريّ فجّر نفْسه أمام أحد المواخير المُنْتشرة على كامل أرضنا العربيّة، الملأى بالفقْر والأوبئة والجهْل؟
كأنْ ....."

رتّب النادل قوارير الجعة على الطاولة، وغيّر منفضة السجائر، فقطع عليّ حبْل أفكاري.

دخل "لطفي" تسْبقه بطنه الذي لمْ يتقلّص حتّى بفعْل الاعتقالات العديدة.
وقفْتُ لأسلّم عليْه، مُرحّبا:
- أهلا رفيقي.
- أيّها الشقيّ، كعادتكَ تخْلف مواعيدكَ...
- (مُقاطعا) نحْتاج أشْياء أخرى أهمّ من المواعيد... أمّا الانضباط، ففرّطْتُ فيه لرجال الأمْن... المهمّ...
أين "سامي" ؟ لمْ أره معكَ ؟
- له بعْض الالتزامات مع فرْقته المسْرحيّة. ومع ذلك تحدّثْتُ معه عنْ مشْروعنا، وأبْدى اسْتعداد.
- إذا، أنا وأنتَ و "سامـي" و"كريمة" و "لزْهر" و "مُراد".
... يكْفي ... في انْتظار أنْ نضع النقاط على الحروف. المطلوب الآن... عمليّا ماذا علينْا فعْله؟

وكأنّه لمْ ينْتبه إلى كلامي، وهْو يُشير للنادل كيْ يأتيه بالجعة، ثمّ علّق:
- فكْرة "اتّحاد كتاب بديل"، تسْتدْعي كثيرا من الوقْت والجهْد. مع ذلك نبْدأ بإصْدار البيانات في الصُّحف أوّلا.
- ولنبْدأ بجريدة "الشعب".
- .. ثمّ نسْتعدّ لإصْدار مجموعة شعْريّة لكلّ الأعْضاء. وتكون كلّ مجموعة مُقدّمَة لها ببيان شعْريّ... وتكون النصوص مُخْتارة بدقّة، وتُعبّر عن المرْحلة.
نحْن يا رفيقي، نُريد نصّا مُغايرا ومُخْتلفا... تكفينا شعاراتهم وتمسّحهم بالعتبات، على غرار: "موت الإيديولوجيا" و "الفنّ للفنّ"...
- (قاطعني) لي فكرة أخرى...
- ما هيَ؟
- كلّ نصوصنا التي ستُنْشر لاحقا، يجب أنْ تُوقّع باسْم صاحبها، وتحْته "اتّحاد كتاب الرفْض". وكلّما انْضافتْ عناصر جديدة، تلْتزم بذلك.
- رائع.. فكرة جيّدة.
(مازحا) كلّما كنتَ قريبا من الخمر، تصير أكثر قدْرة على التفْكير.
(وصل النادل، ورتّب قوارير الجعة أمامنا)

... بالمثل عليْنا تناول النصوص ذات الفكر التقدّمي بالتحْليل والنقْد، والإِشْتغال عليْها، على غرار نصوص محمد إقبال ومعين بسيسو وعبد العزيز المقالح وسميح القاسم ومظفر النواب و...
ـ ... وممدوح عدوان وأمل دنقل والبياتي... هذا مهمّ ...عادة ما نسْتشْهد بكتّاب وفلاسفة، لهم مواقف اِنْهزاميّة أو ينْخرطون في لعبة البلاطات.. ونُضيف مهاجمة هؤلاء وفضْحهم.
(وأنا أسْكب له كأسا من البيرة، أكملْتُ :)
أنا أعْتقد أنّ اتّحاد الكتاب التونسيين، صار كالرجل المريض... يجْمع أشْباه الكتاب، وأشْباه الشعراء ليُجمّلوا الصورة الثقافيّة، ونبْدو كمُجْتمع مدنيّ حقيقيّ.
ـ (تناول حقيبته، وسحب بعْض الأوراق، رتّبها أمامه)
سأقْرأ لكَ آخر نصوصي..
ـ هذا أفضل... صدّقْني "لطفي"، أحتاج أنْ أسْمع بعض الشعر. لأخْرج من هذه البوْتقة المظلمة... أشْعر باخْتناق لا مثيل له.. كأنّي الآن مُسجّى على صليب، وسَط ساحة مُعدّة لإعدامي.
ـ حسنا ... حسنا، اِسْمع:

أنتَ أيّها المُدرّج
وأنتَ أيّها الحزْن الطويلُ
مدْرَجُ الحزْن الطويلْ
وآيات الله أطْولَ
والصّرخات تُزْعج مرْيمَ
والأنْبياء والخرافة

.....

كان يقْرأ قصيدته من صفحاتها العشْر، كمن ينْزف حبْرا. يرْفع يده اليُسْرى أو يثْنيها... يمدّ أصابعه... يُلوّح بإبْهامه... يقْبض على الريح... يبْسط كفّه...
فيما كنتُ أركّب صورا ووقائع ومشاهد على كلماته، كيْ يكْتمل النصّ.
رغْم أنه لمْ يكنْ قارئا جيّدا لنصوصه... بل قادرا على حشْوها بأصابع الديناميت و الإيديولوجيا الفاضحة.
"لطفي" لا يُحرّكه الشعر... بل تُحرّكه السياسة. بل يجْعل شعْره جسْرا لأفكاره المُفخّخة.
وأنتَ تسْتمع له، كأنك تقْرأ بيانا لحزْب العمال المحظور... هكذا يبْدو لي، وإنْ كنتُ أُخْطِئ أحيانا كثيرة في حكمي.
قلْتُ له عديد المرات:
ـ دعْكَ من السياسة الخاطئة، واكْتب الشعر... مارسْ فعل الكتابة بعنف. إنّ تكوينك الفلْسفيّ يمْنحكَ نوافذ كثيرة ومُتعدّدة للقوْل.
يمْكن أنْ تقول بالنصّ ما لا يُمْكن أنْ تقوله في البيانات والترهات.
ـ ربّما... مع ذلك فالنصّ لا يقْدر على تغْيير العالم، إلا إذا اتكأ على السياسيّ... هكذا يقول "قرامشي".
ـ دعْك من "قرامشي"... بصدْق، هلْ تعْتقد أنّ الفكر اليساريّ له القدْرة الآن على أنْ يفتكّ مكانه من جديد ؟
ـ بالطبع... جدليّة التاريخ لا تسْمح بالثبات والتوقّف.

الحقيقة أنّ الفكر اليساريّ لم يظهر أبدا، لأنّ دورة التاريخ لم تكْتمل.
ـ (قلتُ ساخرا) وكيْف تكتمل سيّد لينين؟
ـ يجب أنْ يُدرك النظام الرأسمالي ذرْوة أزمته.
ـ ... هوّ أدْرك ذرْوته، لكّنه لم يُدْرك الأزْمة. بل تخلّص منها إلى العوْلمة.
ـ ومنْ أدْراك أنّ العولمة، ليْستْ أحد وجوه الرأسماليّة ؟
ـ لا... لأنّ العولمة هيّ مرْحلة مُتقدّمة على الرأسماليّة... هيّ عمليّة نقل دائرة الإنتاج الرأسمالي إلى دول الأطراف، بعْد أنْ كانت ثابتة ومحْصورة في دول المرْكز. وهذا ما كان ليحْصل في أوْج النظام الرأسمالـي المعْروف. وأذكر أنّ الفيلسوف صادق جلال العظم فـي كتاب "ما العولمة ؟ "، يعرّفها كالتالي:
"هـي طليعة نقل دائرة الإنتاج الرأسمالي ـ إلى هذا الحدّ أو ذاك ـ إلـى الأطراف بعد حصْرها طوال هذه المدّة كليّا فـي مجتمعات المركز ودُوَله"
ـ .....

كان الحوار أطول من مجرّد نقْله على صفحات الذاكرة الضيّقة... كان أعمق من السّرْد والتحليل.
لليْلة كاملة نخوض في هذا الحوار الذي يبْدو عقيما.
... نعم كان عقيما، لأنّ مفهوم العولمة، لم تتضحْ معالمه إلى الآن، وإلا لما وَجَدتْ الدول المتخلّفة نفسها تتخبّط في هذه الفوضى.
وقد ذكّرني هذا الحوار بمفهوم "الإرهاب" الذي لم يتّضح، ولم تَسْع أطراف دوليّة إلى توضيحه أو تفْسيره.
لا زلْتُ أحلّق بخيالي فوق الأقْبية التي صنعْناها من حوارنا ليْلتها... إلى اللحظة التي توقّف فيها "لطفي" عن قراءة النصّ، مُحمْلقا في بعْض الكلمات غيْر الواضحة، مُحاولا أنْ يتهجّاها، فانْتبهْتُ.
أصلح الكلمة بقلمي المُلقى على الطاولة، وأكمل:
.....

الهلع ـ الهلعُ
إنْ زَحَفَ الويْل على مُدُني
أشْعلْتها
وإنْ حاصَر الغُزاة وطني ذات فجيعة
لا أرْحلُ هرَبا

أكمل النصّ، وتذكّر سيجارته التي خمدتْ أنْفاسها... فأشْعل أخرى، ثمّ مرّ للكأس يسْقي حلْقه، وعلّق:
ـ ما رأيك ؟
ـ (بتأفّف) لسْتُ في حالة تسْمح لي بإبْداء رأيي، ولسْتُ قادرا على مُناقشة أيّ فكرة هذا الصباح... يكفيني أنني استمعت.
(مُحاولا رفْع معْنوياته) ربّما نناقشه في جلسة أخرى... فقط أريد أنْ أسْألك عنْ عنوان النصّ.
ـ العنوان: العنكبوت.

(مدّ لي النصّ)
اقرأه على مهل، وأعطني رأيك فيه... عنْدي نسْخة أخرى منه.

طويْتُ الأوراق وغمسْتها في جيْبي، ثمّ أعدْتُ ظهري ليسْتريح على ظهر الكرسيّ.... فاصْطدم بَصَري بسيّدة تجلس منفردة على الطاولة، تُمسك بسيجارتها بين أنامل كالعنْبر، كأنها تُمْسك عودا من الندّ... وعلى حواف كأسها طُبعتْ شفاهها القرْمزيّة.
نظرتها الذابلة، أثارتْ في داخلي كثيرا من الغرائز الحيوانيّة، وحين أطْلتُ النظر اِبْتسمتْ وشرعتْ تُحرّك سبّابتها اليُسْرى على حافة الكأس بحركات جنْسيّة فاضحة...
اِبْتسمْتُ، فانْتبه "لطفي" مُديرا عُنقه إلى الخلف، ففضح نزْوتي قائلا:
ـ تسْتحقّ الإنْتباه.
ـ مُغْرية حقّا... لكن لا بيْتَ أخلع فيه نزْوتي.
ـ وإذا ساعدْتكَ؟
ـ تكون رفيقي بحقّ
ـ حسنا... بيْت الرفاق مفتوح: "نجيب" في السجن كما تعلم، و "الفاهم" عاد إلى قريته... لن يعود قبل الخميس، المهم أسرع واستمتع بحياتك قبل وصول حركة النهضة إلى السلطة.
ـ جيد... حينها سأدخل متسللا إلى خليلتي بنقاب (قلتها بمكر ممزوج بالفرح)
ـ سأغيب نصف ساعة لأجلب علبة سجائر... في الأثناء تكون قدْ أوقعْتها في شراكك أيها الإمبراطور (وبمكر) واذْفعْ ثمن البيرة.
فيما نهض " لطفي " ومعه حقيبته التي لا تُفارقه... عدّلْتُ جلْستي، وأشْعلْتُ سيجارة مُوجّها انْتباهي وعيوني إليها.
انْتبهتْ، فأشرْتُ إليها بطرْف العين... تناولتْ كأسها وعلبة سجائرها الأمريكيّة، وقدمتْ نحوي... انحنتْ عليّ وقالتْ:
ـ هل أجلس؟
ـ بالطبع... بالطبع، يُسْعدني ذلك.
جلستْ قُبالتي كزهرة عبّاد الشمس، يسْبقها صدْرها المُتشنّج وشفاهها العطْشى، وهي تتكلّم كأنّ مياها تنْساب فجرا نحْو مصبّها... مُحاولة أنْ تُرفق كلّ جملة بضحْكة فاضحة ـ مُغرية، تُحرّك فيّ كلّ بهيميّ. مُحاولة بين الحين والآخر إبعاد خصْلة من شَعْرها تدحْرجتْ فوق عيْنها اليُسْرى، بحركة رشيقة تتْبعها بحركة من رأسها، فتنْتفض حبّات صدْرها، وتكاد تخْرج وتسْتريح على الطاولة.
لم تدرِ الساعة دورتها كاملة، حتّى كنتُ وإياها في منزل الرفاق المحْشوّ في أزقّة المدينة العتيقة، وقدْ غادرنا "لطفي".
بالغرفة الوحيدة الملأى بالكتب وأشْرطة الكاسات والجوارب وعلب الجعة الفارغة... كنتُ أمرّ على الأشْياء: صورة "لجيفارا" وأخرى "لبوب مارلي" ومعلّقات لرابطة حقوق الإنسان ومنظمة العفْو الدوليّة... صحف ومجلات ودوريات، ملقاة دون ترْتيب على الأرْض وبعْضها على رفوف من خشب شُدّتْ بقضْبان طويلة.
... لا مكان هنا للأسرّة... فقط حشايا ووسائد ممدودة وسطَ غرفة كسجن.

فيما كنتُ أتصفّح بعض الكتب، وأقرأ بعض الكراسات... كانتْ "مُنْية" قدْ خلعتْ سروالها " الدجينز" وسترْتها، مُكتفية بلباس داخليّ شفّاف يسْترها إلى ما فوق الركبتين، كاشفا عنْ نصْف صدْرها العلْويّ... تمدّدتْ على الأرْض، وأشْعلتْ سيجارتها بإغراء شديد.
دون أنْ ألتفت إليها ـ وأنا أتصفّح مجلّة "أطروحات" ـ سألتها:
ـ منذ متى بدأتِ هذه التجربة؟
ـ (اِبْتسمتْ بمرارة) ولماذا تسْأل؟
ـ بالطبع لسْتُ عميلا سياسيّا، ولسْتُ رجل أمن... مُجرّد سؤال، يُمكنكِ أنْ لا تُجيبي عنه.
ـ (تنهّدتْ) لا أعْرف بالضبط .. ما أتذكّره، هوّ أنّ زوجي تعرّض إلى حادث مُرور بسيّارة مجهولة... يُشاع أنها لرجل أمن.
ـ (قاطعْتها) وهل أنتِ متزوّجة؟
ـ تقريبا... تزوّجْتُ عاملا بسيطا.. (نفثتْ دخان سيجارتها في سقْف الغرفة) مع ذلك، كنتُ سعيدة رغْم الفقر، وأنجبْتُ منه طفلا.
ـ وبعْد...؟
ـ ... حادث المرور أفقد زوجي ساقه اليُمنى، وقطعوا ساقه اليُسْرى بعد ستّة أشهر إثر إصابتها بالسكّري.
(حملقتْ في السقف كأنها تسْتلهم منه ماضيها) زارنا صديقه، واقترح عليّ أنْ أشْتغل معه في دكان لبيع الملابس الجاهزة.
ـ وبعد ..؟
سألتها، مُتنبّئا أنّ القصّة مُشوّقة... ألقيْتُ المجلّة من يدي، وجلسْتُ على صندوق خشبيّ، بعد أنْ أشْعلْتُ سيجارتي وانْتبهْتُ.
بعْد أنْ رفعتْ تنْهيدة كانت جاثمة على أنفاسها، أكملتْ:
ـ كان لا بدّ من العمل، لأعيل زوجي وطفلي والغرفة المُتداعية التي نقْطنها على وجْه الكراء، شهر واحد فقط كان كافيا ليغْدق عليّ صديق زوجي الهدايا والأموال، ثمّ أوقعني في شراكه. وصار يُعاملني كعشيقته، ثمّ أصبح يعْرضني على أصدقائه...
ـ (قاطعتها) بالطبع زوجكِ لا علْم له بالموضوع؟
ـ لا أعتقد... كانت الأموال التي أقدّمها له والملابس التي كنتُ أرْتديها و العطورات الفاخرة و .. و .. لا يُمْكن أنْ تقْنعه أنها من أجرتي التي لا تتجاوز المائة دينار.
المهمّ....
أُطردتُ من العمل بتهمة السرقة، بعد أن عثر صاحبه على خليلة أخرى. وكان لا بدّ أنْ أكسب المال بأيّ طريقة، ولو بالرجوع إلى الزبائن الذين كان يُعْرض عليهم جسدي...
وهكذا إلى أنْ قُبض عليّ في منزل أعدّ للزناء.
(تدحْرجتْ دمعات إلى خدّها، ولم تحاول منها)
لمّا خرجْتُ، كان زوجي قدْ تُوفّي وابني لا أعرف مكانه إلى الآن.
وها أنا الآن أطوف من بيت إلى بيت، ومن مقهى إلى مقهى، ومن سيارة إلى أخرى...
انتفضْتُ كمنْ تعثّر بقطّ أسود، مُتّجها إلى الكتب المُرصّفة بلا نظام، وشرعْتُ في تصفّحها: رأس المال... مدن الملح... شرق المتوسّط... اللجنة... سارتر... فوكو... درويش... نيتشه... سان جون بيرس... صادق جلال العظم...

انتصبتْ " مُنية "، واقتربتْ منّي... طوّقتْني بيديْها من خصْري، وألقتْ رأسها على كتفي:
ـ هل ستبْقى تتصفّح الكتب ؟
ـ الكتب أهمّ...
ـ وأنا... ؟
ـ أنتِ...ارْتدي ملابسكِ...
(سحبْتُ عشرة دنانير من محفظتي الصغيرة، ومددْتها لها بلطف)
ـ لماذا تُعاملني بهذه الطريقة؟
ـ لا تفْهميني خطأ... أنا في حالة نفْسيّة يُرْثى لها، وزادتْ قصّتكِ في تكْديري. أنتِ لا تعْنيكِ سعادتي أو نشْوتي... ما يهمّكِ هو المال. مهنتكِ هيّ قحـ ...
ـ أكمل لماذا صمتّ؟ نعم هيّ مهنتي... إذا لم تتوفّر لي مهنة أخرى. لا يهمّ إنْ تاجرْتُ بجسدي، إنه جسد فانٍ، فما حاجتي به ما دام بإمكاني أنْ أُنفق منه أو بواسطته.
ـ دعْكِ من كلّ هذا... خُذي هذه الورقة، وغادري حالا.
وانْشغلْتُ عنها بالمكتبة، إلى أنْ غادرتْ. ألقيْتُ ما بيدي على الحشايا، وقدْ أثارني كلامها عن الجسد، فحضر النواب:

نخبكِ... نخبكِ سيّدتي
لمْ يتلوّث منكِ سوى اللحم الفاني
فالبعْض يبيع اليابس والأخضر
ويُدافع عنْ كلّ قضايا الكون
ويهْرب من وجْه قضيّته
نخبكِ... نخبكِ...

أنتِ التي فهمْتِ الجسد، ولم أفهمْه.. للمرّة الثانية أنفرد بسيّدة ولا أسْقي حقولها بمياهي الدافقة... للمرّة الثانية لا يُطاوعني جسدي أو ربّما عقلي الذي يحضر فيُفْسد الاحتفال.
كنتُ مع أخرى ذات ربيع بمناسبة تظاهرة ثقافية، أحضن بَتَلات جسدها الناعمة، وهي ممدّدة بين ذراعيّ... طفولتها تُحاول أنْ تُقاوم ثورة جسدها الغضّ، دون جدوى. انتصبتْ حبّات الرمان تحت أصابعي، وهي تزداد اِرْتخاء كلما مرّرْتُ شفاهي على خدّها أو عنقها أو... كدتُ...
غيْر أني رفضْتُ أنْ أكون فاتح أرضها. علّي إذا ما فتحْتُ، أشْرعْتُ كلّ الأبواب والشرفات على حدائقها فتُنتَهك.
غيْر أنها عكس هذه المومس، ما تلوّث منها كان أكثر من اللحم الفاني . صارتْ كمضْغة بدبْر بغل، مُباحة للجميع.
هذه المومس كغيْرها من مومسات عديدات، يقعْن بفعل حبائل الفقر... وما أشدّها. أما التي استحضرتها فلا هي واعية بما تفْعله ولا الفقر هدّها... فعرضتْ جسدها للبيع. هيّ أشبه بفراشة أينما سطعتْ إنارة ارتمتْ لتحْرقها.
حضرتْ " فاطمة " كأيّ امرأة يمكن أنْ تحضر دون إذن، فتجادلها أو تحادثها أو تمقتها أو تتمنى أن تحتضنها أو تقتلها...
انتصبْتُ واقفا... تناولْتُ ورقة بيضاء وكتبْتُ عليها:

"رفيقي لطفي ... أنا غادرْتُ العاصمة في اتّجاه مدينتي، ومعي ديوان بابلو نيرودا... أعيده لكَ في زيارتي القادمة".

وضعتُ الورقة على الصندوق الخشبيّ وحملتُ الكتاب، مُخلّفا ورائي رائحة عطر نسائيّ ونزْوتي.

الفصل السابع

مبادلة الرهينة

لا زالتْ سيارة الشرطة التي تُقلّني إلى حيْثُ لا أدري، تطْوي الأرْض طيّا.
كنتُ أشعر بذلك من خلال صوت السيّارة المُرتفع، وسهام الريح الوافدة إلى الداخل من نافذة لمْ تُوصدْ تماما.
لم أسْتطعْ أنْ أحدّد المدّة الفاصلة بين ركوب السيارة وتوقّفها... رغْم أنها مدّة يُمكن أنْ تتجاوز الساعة بقليل.
توقّفْنا... وتمّ إنزالي برفْق كما اعتقدْتُ، ولم أُبارح مكاني. حينها سمعْتُ أحد الذين رافقوني، يقول كمنْ يوجّه كلامه إلى من يبْعد عنه عشرين مترا ـ بحدْسي فقط خمّنْتُ ذلك، رغْم العصابة التي ما زالتْ تحْجب عنّي الإنارة، قال:
ـ الأمانة عندنا الآن.
أجابه آخر من الجهة الأخرى:
ـ وهذه أمانتكم بعون الله.

لمْ أفهم معنى الحوار تماما... فقط وَخَزَني أحدهم من ظهْري، قائلا:
ـ تقدّمي إلى الأمام.
تقدّمْتُ بخطى بطيئة، محاولة تحسس الطريق بأصابعي التي أمدّها أمامي لتُعينني على تلمّس اللاشيء، ودقات قلبي كبوصلة لا تشير إلى شيء... تدقّ كإيقاع طبل منتفخ بصوت الحرب.
لم أكنْ واعية، هل أنا أسير بمفْردي أم بصحبة أيّ كان، أو كنتُ أقادُ دون علمي إلى هاوية ما.
.... قرابة دقيقة أو أقلّ من المشْي، أمسك بي أحدهم من كتفي وهو يقف أمامي، قائلا بصوت مُختلف لمْ أعهدْه ـ كأنه صوت شيخ يُحادثني أو يُحادث نفسه:
ـ جيّد... جيّد جدا.. (ووجّه كلامه إلى آخر لم أتبيّنه) خذوها إلى الداخل بسرْعة.

بعْد ساعة قضيّتها بغرفة أشبه بقاعة مسْجد، مُقيّدة اليدين والساقيْن وقدْ فكّوا عنْ بصري عصابتهم.. وصَل شيخ عليْه وقار ورهبة، مع أنّ عيونه تشعّ إباء وحدّة. جلَس قبالتي على كرْسيّ خشبيّ، وقدْ مدّ سبْحته ليُحرّك حبّاتها بهدوء وخشوع... أو ربّما كانت السبحة بيده ولم أنتبه.
عدّل من جلْسته قليلا بعد ما يُقارب الدقيقة من الصمْت، دون أنْ يرْفع عيونه نحوي، وقال:
ـ أنتِ الآن في رعاية تنْظيم القاعدة ببلاد الرافديْن.
لمْ أشْعر بخوف شبيه بخوف هذه اللحظة، ولا أتذكّر أنّ خوفي أسْرع في شراييني كالنمل. ثمّ حَفَر تحت الجلد، ليصْبغ على وجْهي اِرْتباكا لا مثيل له.
كثيرا ما سمعْتُ عن تنظيم القاعدة والإرهاب و 11 سبتمبر و"أسامة بن لادن" و "الظواهري"... وأذكر أنه في كلّ مرّة تحضر هذه الأسماء، يحضر الخوف والفجيعة والرهبة وترتفع درجات الحيطة في دول أوروبا وأمريكا إلى مستوى السقْف. فما بالك بامرأة وقعتْ الآن في شراكهم.
وبعد لحظات من الصمت، أكمل:

ـ لن نُعاملكِ كما عاملكِ حزْب البعث البائد. وبعون الله ستكونين بخيْر... أنتِ فقط رهينة للضغط على أعداء الله.
حينها فقط فهمتُ أنّ وجْهتي حُوّلتْ من تنْظيم إلى تنظيم آخر بالمبادلة أو بعنوان صفقة ما.
وكيف سأعامل وأنا بين براثن تنظيم القاعدة ؟
ما الذي سيفْعله بي أبناء "الزرقاوي" وأحفاد "بن لادن"؟
كيف سأكون بخيْر ؟ وأنا لا أعرف مصيري، وما الذي سيحْصل لي ؟ هل أُعْدم بحبال الإسلام الإرهابي ؟ أم أُرْمى بالرصاص وألقى إلى كلاب الشوارع؟
هل يَذْبحني "الزّرقاوي"، كما ذَبح تلك الرهينة الأمريكيّة أمام شاشات العالم ؟ أم ينْهشون لحْميَ الغضّ المغْري، كما تُغتصب مومس، وقدْ وقعتْ بأيدي عصابة منظمة ؟
كأنه ألقى سبحته إلى بوْتقة تفكيري لترصّد خوفي وأسئلتي... أو أبْصر خوفي في عيوني الحيْرى، وهْي تمْسح المكان علّها تعْثر على بصيص من أمل يُخرجها من القفص المُحاط بالفخاخ.
قال بهدوء لا مثيل له:
ـ قلتُ لا تخافي، بعون الله لنْ يمْسسْكِ ضرّ.
نهض إلى خزانة خشبيّة بلا أقفال، وتناول منها لباسا أسود ـ ألقاه بجانبي، وأكمل:
ـ عليْكِ الآن أنْ تسْتري عورتكِ، لتكوني أختنا في الإسلام.
وعلى علمي باللغة العربيّة، إلا أنني لمْ أفهم ماذا يقصد بالعورة... لم أُصادفْ هذا المصطلح من قبل. فسألتُ بارْتباك:
ـ لم أفهم....
ـ (مبتسما) ارْتدي هذا اللباس العراقيّ، وغطّي رأسكِ... هذا كلّ شيء.
ـ وقيْدي..؟
ـ آه ... فهمْتُ... سأفكّ قيْدكِ، وأتْركِ لخمْس دقائق.
ـ (أشرْتُ برأسي علامة المُوافقة، ولم أعلّق)....
تقدّم منّي وفكّ أسْري، ثمّ غادر الغرفة ليعود وقدْ ارْتديْتُ ملابسي العراقيّة السوداء، ولم أسْأله وهو يُعيد القيْد إلى معْصميّ، إنْ كان لون اللباس دلالة الحزن، أم هو لباس تقْليديّ مُتداوَل.
وقبْل أنْ يُغادر الغرفة، أشار بسبّابته إلى كتاب كان مُلقى على طاولة صغيرة، وقال لي:
ـ بجانبكِ كتاب الله العزيز، يُمكنكِ قراءته. أنتِ لسْتِ على طهارة، مع ذلك قراءة القرآن أفضل من ترْكه.
لمْ أنتبه إلى كلامه، ولمْ أعرْ لكتاب القرآن انتباها... وتنفّسْتُ الصعداء عندما خرَجَ، كأنّ حجارة بحجْم جبل كانتْ جاثمة على صدْري.
اتّكأتُ إلى الحائط، مُحاولة أنْ أغالب رغْبة جسدي في النوم. فالمكان لا أمان به، ولا يمكنني أنْ أثق بهؤلاء.
كلّما أخذني النوم قليلا، أرى سكاكينهم تمْتدّ إلى عنقي... أرى بنادقهم... أرى الأحزمة الناسفة والسيارات المُفخّخة... أرى محطات الميترو بلنْدن، تتناثر إربا... أرى الأبراج تتهاوى كنجْمة مُحترقة...

مرّ بذاكرتي لحظتها، حجم الفجيعة التي أصابتْ والدي وهو يُتابع أحداث 11 سبْتمبر... ظلّ ممْسكا بسيجارته والطائرات تصْطدم الواحدة تلوى الأخرى، كأنك أمام مشهد سينمائيّ خادع أُعدّ له جيّدا.
فيما لا يزال المُحلّل السياسي يُعلّق على الحدث، كان والدي مُنهارا على الأريكة دون حراك. غيْر أنه بعْد يوم واحد، صار مُتفائلا ومبْتسما، كأنّ ما حدَثَ البارحة كان مسْرحيّة. لمْ يعدْ مُهْتما ومُنْشغلا بالحدث وبالعمليّة الإرهابيّة، عدا ما كان يلغّ به أمام مجموعة من الحقوقيين اليهود، كلما اجْتمع بهم في منزلنا... يُناقشون آخر الأحداث ومواقف الدول الكبْرى والدول العربيّة وحتّى بعض الخونة مــن اليهود.

وعلى خلاف والدي المُنْشغل بالأنشطة السياسيّة والثقافيّة... كنتُ لا أهتمّ بغيْر عملي بفرْع منظّمة الأمم المتحدة للإغاثة. لا أبدو سياسيّة، ولا أفهم كثيرا في الإيديولوجيا والأحزاب، عدا ما يتوفّر للمواطن العادي.
أما والدي فهو العضو الناشط بحزْب الخضر، ورئيس منظمة "ضدّ الفكر النازي" التي أسسها، ويترأسها منذ سقوط جدار برلين. ما زال ينْشط بحماس، كلما اشْتدّ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، أو كلما نهض أحد الجامعيين أو المثقّفين ليُشكّك في المحارق النازيّة.
وما زلْتُ أذكر جيّدا العمل الهام الذي قام به أثناء محاكمة "دافيد إيرفينج" في محكمة ألمانيّة قضتْ بتغريمه عشرة آلاف مارك، بعْد أنْ شكّك في حدوث جرائم ضدّ الإنسانيّة. وهو ما حصل مع الكاتب "جارودي"، حيْث كان والدي يتنقّل حتّى إلى فرنْسا والنمْسا وانجلترا لحشْد الأنصار اليهود ضدّ هؤلاء.
لمْ تهْدأ الحركة في بيْتنا، من اسْتقبال الشخصيات السياسيّة والثقافيّة والدينيّة... تناقش تأثير هذا الحدث على العلاقات بين اليهود، ومدى النجاح الذي يُمكن أنْ يتحقق لهذا الكاتب، خاصة إذا اسْتثمر العرب نظرياته.
كان والدي يدافع عن موقفه وعن منظّمة "ضدّ الفكر النازي"... أمام جمع من اليهود والمُناهضين للمُشكّكين في المحارق النازيّة.
وهو يُلوّح بجملة من الأوراق، هيّ عبارة عن بيانات ستُوزّع في الشوارع الألمانيّة.. وتُعلّق في الأماكن العامة.
فيما سيتكفّل هو ومجْموعة من الحقوقيين، بحشْد الدعم الدولي للضغْط على القضاء الألماني.
لمْ أعرْ اِهْتماما للمسْألة، رغم تعاطفي مع اليهود ومع من لقيَ حتْفه في المحارق النازيّة. كنتُ أدْخل عليْهم دون أنْ أنْضمّ إلى حواراتهم، ودون أنْ يدْعوني أحد منهم لمتابعة الحوار، رغم أني إطار بمنظّمة دوليّة.
هذا عدا المرّة التي أعدّتْ فيها المنظّمة تقريرا لمناقشته، حول تراجع المحاصيل الزراعيّة في الأراضي الفلسْطينيّة. والتي ألمحتْ فيه اللجنة الرافعة للتقْرير إلى تأثير السياسة الإسرائيليّة اللاإنسانيّة على الوضع الاقتصادي.
ثار نقاش عنيف في أرْوقة المنظمة، حول مفهوم "اللاإنسانيّ"، وعُرض التقرير للنقاش مرّة أخرى قصْد تعْديله.
أثناء ذلك، دخلْتُ على والدي في مكتبه بمنزلنا، وكــان مُنْشغلا بقراءة كتاب

"بروتوكولات حكماء صهيون"، الذي كثيرا ما أشاهده يتصفّح أفكاره، وكأنه يسْتمدّ منه أحكاما إلهية. غيْر أنه كثيرا ما يُسْرع إلى إخفائه بارْتباك، كلما حلّ ضيْف فجْأة أو دون سابق إعلام... يطويه بسرْعة، ويدسّه في درْج مكتبه بخوف الخنزيرة على أطفالها.
دخلْتُ، فانْتبهَ إليّ بشيء من الغرابة، وعلّق:
ـ لا أراكِ تتردّدين كثيرا على مكتبي... ما المسْألة؟
ـ ليْس شيئا مُهمّا... فقط أردْتُ أنْ أسْتشيركَ في مسْألة، علّي أتحسّس زوايا الموضوع.
ـ ما نوع الاستشارة ؟
ـ سياسيّة طبعا.
ـ أعرف.. أعرف... أقصد بماذا تتعلّق ؟
ـ تتعلّق بتقرير أعدّتْه منظمة الأمم المتحدة للإغاثة، حول تأثير الحصار الإسرائيلي على الوضع الفلاحي لدى العرب في "غزّة".
ـ (طوى الكتاب الذي أمامه، وخلع نظارته) وماذا جاء في التقرير ؟
ـ جاء فيه أنّ الحصار الإسرائيلي لا إنساني.
ـ (ردّ بحدّة) هذا تقرير مُلفّق ضدّ اليهود. الغرض منه منع اليهود من الدفاع عن أرضهم المُقدّسة ضدّ الإرهابيين العرب.
(خفّف من حدّة كلامه) وهل صادَقوا على التقرير ؟
ـ لا... يبْدو أنهم سيناقشون مسْألة "اللاإنسانيّ" هذه.
ـ طيّب... طيّب، هذا ما يجب أنْ يحصل.
على كلّ أعلميني بآخر الأحداث، حتّى يُمكننا التحرّك.
أكمل كلامه، وعاد يُرتّب نظارته على أنفه الحاد. ثمّ فتَحَ الكتاب الذي أمامه، على نفس الصفحة التي كان توقّف عنْدها.
فهمْتُ منه أنّ الحوار قدِ انتهى.
هكذا كان والدي يتعامل مع الجميع بجفاء وبكلمات واضحة ومُخْتصَرة... حتّى مع عائلتنا الضيّقة.
وأذكر أنّ آخر حوار دار بينه وبين أمي ـ وهي على فراش الموت ـ كان جافا وقاسيا لا ينمّ عن مسؤول عنْ عائلة.
قالتْ له:
ـ "هانز" قدْ لا أعيش بعْد اليوم ؟
ـ لا داعي لهذا الكلام... سأطلب لكِ الطبيب.
ـ أنا لا أريد طبيبا، أريدكَ بجانبي في هذه اللحظات.
ـ لا أسْتطيع... لي أشْغال لا بدّ من إتمامها. سأغادر الآن، وستتكفّل "أنجيلا" باسْتدعاء الطبيب.
ـ هان ...
ـ (وهو يُغادر) أتمنّى لكِ الشفاء... لنْ أتأخّر.

غادر مُسْرعا نحو أعماله وسياسته وأنشطته، تاركا أمي تصارع حشْرجات الموت، لتلفظ أنفاسها بعد دقائق.

كانتْ عائلتي ـ رغم الجفاء العاطفيّ ـ تُعدّ عائلة مُحافظة، من أصول يهوديّة هاجرتْ إلى بريطانيا زمن الحكْم النازيّ، وعادتْ إلى ألمانيا بداية الستينات، حيْثُ تعرّف أبي على ابنة صديق والده وتزوّجها.
هيّ أمي التي ماتتْ، حين بلغتُ العقْد الثاني من عُمري.
لذلك جاءتْ علاقتي الشاذة بـ "نارمين"، سيْفا مُسلّطا على رقبتي. أخشى أنْ يُصيبني، فتنْهار علاقتي بوالدي. فرغم تفتّحه وتحرّره إلا أني لا أضمن دفاعه عن السحاقيات واللواطيين.
ما كنتُ أخشاه حصل فعلا، واسْتعملتْ "نارمين" شريط فيديو ضمّنتْه صورا من علاقتي الشاذة معها لتهدّدني. بأن تكشف علاقتي الشاذة لوسائل الإعلام فأفقد منصبي المحترم بمنظمة الأمم المتحدة. وكان المقابل هو أنْ أعمل لصالح المُخابرات الإسرائيليّة.
يا له من موقف، فلو كنتُ امرأة عاديّة لهان الأمر، لكنني إطار سام بمنظّمة دوليّة. وأيّ تشْويه لسمْعتي، قدْ يُفقدني عملي.
فهمْتُ تبعا لذلك أنّ "نارمين" لم تُقابلْني صُدفة لمّا تعطّلتْ سيارتي تحت الأمطار. وحتّى سيارتي تمّ تعْطيل مُحرّكها عمْدا، لأقع بالتدرّج في هذه اللعبة التي لمْ أفقْ منها، إلا وأنا مُحاصرَة برغباتي الجنْسيّة التي لمْ تخْمدْ أبدا، وبسطْوة المُخابرات الإسْرائيليّة.
وما وُقوعي في براثن المجموعات الإرهابيّة في العراق، إلا بسبب مُهمّة كُلّفْتُ بها، وليْس بسبب عملي في المنظمة الدوليّة.
في اليوم الذي اختطفت فيه، كان اليوم قبل الأخير لمُغادرتي التراب العراقي في اتجاه واشنطن لحضور مؤتمر دوليّ. لذلك كُلّفْتُ بمُقابلة أحد أعضاء المليشيات التابعة لوزير بالحكومة العراقيّة، ليُسلّمني وثائق أحملها إلى "نارمين" ومنها إلى عميل آخر بالمُخابرات الإسرائيليّة . وبسبب تلك الوثائق، ها أنا الآن في كمّاشة إرهابيين لا أعرف ما سيصْنعون بمصيري.
فهل تتدخّل إسرائيل لإنقاذي؟ أمْ منظمة الأمم المتّحدة ؟ وما أدْراني أنّ منظمة الأمم المتحدة ستسْعى لفكّ أسْري إذا علمتْ أني أشْتغل عميلة للمُخابرات الإسرائيليّة ؟
و والدي هلْ سيفْتخر بي أمام أصدقائه السياسيين، إذا علم أنني أعمل لصالح الشعب اليهودي؟ وفي حقيقة الأمر، لم يكن ذلك الشريط الذي يصوّر علاقتي الشاذة بنارمين هو السبب الوحيد لانضمامي للمخابرات الإسرائيلية .. فأنا كنت قادرة على العيش بأريحيّة وبترف لا مثيل له، بحكم الثروة الهائلة التي اكتنزها والدي في البنوك والبورصات وتجارة الذهب. وإنْ كنت حريصة كلّ الحرص على منصبي بالمنظمة الأمميّة، إلا أنّ والدي أمكن له أنْ يزرع في داخلي حبا جارفا للشعب اليهوديّ وتعاطفا مع قضيّته العادلة في "أورشليم".
صرتُ تبعا لذلك أتوفّر على قدر هائل من الكره والنقمة على العرب الوسخين والإرهابيين وعلى كل مسْلم أراه يسْجد لربّه، ذلك السجود الذي معناه الخنوع والخوف والتملّق. لذلك كلما أرى مسلما يُقتل أو يسجّ به في الزنازين والمعتقلات أردّد بيني وبين نفسي أنّ العالم ارتاح من جرذ يمكن أنْ يصيب الإنسانيّة بالوباء.
لا أدري... لا أدري..
كلّها أسْئلة تنطّ في ذهني وتُشوّش عليّ مُحاوَلة ترتيب الأفكار.
أردْتُ التخلّص من كلّ ذلك بمحاولة تصفّح كتابهم... كتاب القرآن الذي يتّخذونه مرجعا لممارسة الإرهاب، والتعدّي على الأبرياء . فتحْتُ الكتاب لأقرأ أيّ شيء:

" أوَ لمْ يَروا أنّا خلقْنا لهُم مِمّا عَمِلتْ أيْدينا أنْعاما فهُم لها مالكُون * وذلّلْناها لهُمْ فمِنْها رُكُوبُهُم ومنْها يأكُلون * ولهُمْ فيها منافِع ومَشارِب أفَلا يَشْكُرُون * واتّخَذُوا مِنْ دُون الله آلِهة لعلّهُمْ يُنْصَرُون * لا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَهم وهُمْ لهُمْ جُنْد محْضرُون * فلا يَحزُنك قولهُمْ إنّا نعْلَمُ ما يسرّونَ ومَا يُعْلنون * أوَ لمْ يَرَ الإنْسان أنّا خلقْناه منْ نُطْفَة فإذا هُمْ خصيم مُبين * ..."

لمْ أُكمل ما تبقّى من السورة، فقط لقشعْريرة حلّتْ بجسدي... برهْبة أحْسستها وأنا أمرّ على إيقاع ليْس بالشعر ولا بالنثر. لمْ أصادف نصّا عربيّا بهذا التأثير والترتيب، ثمّ أنّ شعر العرب لا يُرتّب بهذا الشكل على الورقة.

ما شدّني فعلا، حديث القرآن عن النطفة التي هيّ السبب الأول لنشْأة الجنين في رحم أمه.

كيف أمْكن لهذا النصّ أنْ يُدْرك هذا المفهوم زمن رسولهم الأميّ الجاهل ؟ كيف ؟....

اخْتلطتْ أشياء كثيرة في ذهني... هي مزيج من الرهبة والشوق والإرتباك.

فتحْتُ الكتاب على صفحته الأولى، وشرعْتُ أقْرأ مُتهجّية كلمات لمْ أُصادفْها أو لم أسْتطع شرْحها، أو هي بسبب الخطّ العربيّ المُتشعّب، لمْ أتبيّن أحْرفها.

كلّما تقدّمْتُ أكثر، اِزْددْتُ حيْرة وارْتباكا...

سمعْتُ خطوات أحدهم، فألقيْتُ الكتاب جانبا وتظاهرْتُ بالنوم. دخل نفس الشيخ إلى الغرفة، وأوصَدَ بابها من الداخل، مُتّخذا نفس الكرسيّ الخشبيّ للجلوس، وقال:

ـ أعرف أنّكِ لسْتِ نائمة.. اقرئي القرآن، سيُساعدكِ كثيرا.

شعرْتُ بأنّ العرَقَ الذي يتصبّب على جبيني، قدْ فضحني، ففتحْتُ عيوني قائلة له:

ـ ماذا ستفْعلون بي؟

ـ هلْ أنتِ جائعة ؟

ـ لا يهمّ... سأَلْتكَ ماذا ستفْعلون بي ؟

ـ سنُقرّر لاحقا.. لا تهْتمّي، اقرئي القرآن فقد تُصْبحين امرأة مُسلمة. والله سبحانه وتعالى قدْ أكرم المسلمات، وجعل الجنّة تحت أقدام الأمّهات.

ـ إذن لماذا تقتلون النساء، وتذبحون الرجال ؟

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ كلّ الصحف والقنوات التلفزيّة، تُعْلن ذلك وتُمرّر صُوركم وأخباركم.

ـ (ابتسم) هذا هُراء... يُحاولون تشْويه سُمعة الإسلام.

نحن يا ابنتي نُدافع عن أرْضنا... صحيح أنّ الوسائل أحيانا لا إنسانيّة. لكننا نحن من احْتلّوا أرضهم، واغْتصبوا نساءهم، وانتهكوا حُرُماتهم ، و... و.... أليس كذلك؟

ـ لا أعرف...

نهض من مقعده ليُغادر الغرفة، ثمّ عاد حاملا معه طبقا عليْه بعض الخبْز وحساء لمْ أتبيّن لونه تماما، غيْر ما يَبينُ من خضار داخله.

وضع الطبق أمامي وانْصرف، دون أنْ ينْسى إغلاق الباب خلفه. وكانت الإضاءة التي تتقلّص شيئا فشيئا، تشي أنّه المساء أو بداية الليل. لذلك تكهّنْتُ أنّ ما قدّموه لي على هذا الطبق من خبز وحساء، إنما هو العشاء.

رفعتُ الإناء إلى أنفي أشمّ ما بداخله، فصفعتني رائحة حارة لم أتبيّنها... وتذوّقته ..

أعدت الإناء إلى الأرض بتوتّر وبصقتُ ما علق بفمي من حساء لم أتبيّن أيّ صنف من الأطعمة هو. فتّشتُ في كلّ الأطعمة الألمانيّة فلم أجد له مثيلا... أسْلمْتُ رأسي إلى الحائط بتأفف، فوخزني الجوع وتحرّكتْ أمعائي تعلن احتجاجها.
نظرتُ إلى الإناء من جديد ثمّ إلى الخبز ولم أتمالك رغبتي في الأكل.. بالأحرى رغبتي في أنْ أبقى على قيْد الحياة.

الفصل الثامن

هذه اللوحة للتعذيب

بنفْس التوقيت تقريبا، كـــان "نوّاف" مُجتمعـا بـ "أبـي المجيـد" و"أبي الوليد"... بذات القبْو حيْثُ كانت "أنجيلا" أسيرة هناك... الإضاءة فانوس زيْتيّ شُدّ للعمود الرافع ذلك السّقف القصْديريّ، والمجموعة بلباس عسْكريّ يُحيطون بخريطة مُمدّدة على الأرض، بجانب أسْلحتهم المُلقاة حذْوهم.

في حين كان "نوّاف" يُوضّح للبقيّة المسالك والطرقات المُمكنة التي ستُسْتعمل لتنْفيذ العمليّة... كان الهدوء يسود الشوارع، عدا أصوات طلقات ناريّة مُتقطّعة آتية من بعيد.

وضّح "نواف"، واضعا سبّابته على الخريطة:

ـ بعْد تفْجير الموْقع الوهْمي، ستهبّ رجال الشرطة إلى المكان. تكـون حينـها "أبو الوليد" في رأس الشارع، قرب مكان التفجير، لتُهاجمهم بالرصاص دون أنْ تُعرّض نفسك للخطر. في حين سيكون "أبو المجيد" و "تمّام" في الرأس الثاني للطريق، من حيث قدموا (مُتداركا) طبعا عند قدومهم لا تتْركوا لهم أيّ إمكانيّة لكشْفكم. فأنتم مُطالبون بالاختباء إلى حين سماع صوت الرصاص... حينـها تُفاجئونـهم بالكاتيوشا. فـي نفس الوقت ـ ودون تأخيرـ تعودون إلـى موقع الانطلاق.

علّق "أبو الوليد"، مُوجّها كلامه لـ"نواف":

ـ وهل ستبْقى هنا؟

ـ (بغضب حاول إخفاءه) لا أحد سيبْقى خارج المعْركة... كلنا سنكون في خدْمة العراق. (أعاد وضْع إصبعه على الخريطة)

هنا بناية قبل المُنْعرج... البناية الحكوميّة التي دمّرْناها الشهر الفارط. أنا سأكون فوق سطحها... سأكون قناصا، لأمنع أيّا منهم من الإفلات (متداركا) مع العلم أنني من سيُفجّر الموقع الوهْمي (أخرج جهازا من جيْبه) وهذا جهاز التحكّم معي الآن.

من له ملاحظة ؟

علّق "أبو المجيد"، وهو يرفع بقاذفة الكاتيوشا إلى كتفه:

ـ يبدو أنّ الأمور واضحة.

ردّ "نواف"، وقدْ انتصب رافعا رشاشه إلى كتفه:

ـ حسنا... لنتوكّل على الله. (مدّ يديه للدعاء) اللهمّ انصرْنا على المُعْتدين، واحم العراق الغالي يا ربّ العالمين.

ردّد الجميع:

ـ آمين...

غطّوا رؤوسهم بأكياس سوداء لا تتْرك إلا الأفواه والعيون، وتناولوا أسلحتهم... فيما تقدّم " نواف " ليفْتح الباب ويُطلّ بحذر.

يترك نصف جسده خارج الباب، ويده اليمْنى ممدودة إلى الداخل، وكأنه ينادي رفاقه الواحد تلو الآخر، ليَخرجوا وقدْ أمّن لهم الطريق.

نصف ساعة، كانت كافية ليأخذ الجماعة مواقعهم... كان " نواف " قد سمَح له موقعه من أعلى، بأنْ يرى رفاقه قد أخذوا أماكنهم، وأنّ لحظة التنفيذ قدْ حانتْ.

ثبّت رشاشه على كتفه ورفع يديه للدعاء يطلب النصر والتوفيق.

تناول جهاز التحكّم ... وجّهه جهة الموقع الوهْميّ... سحب نفسا عميقا، وضغط على الزرّ ليهْتزّ المكان وتتصاعد الأدخنة، مصحوبة بلهيب مدّ ألسنته من النوافذ والأبواب.
كانت قوّة الانفجار، كفيلة بأنْ تُخرج الحيّ من صمْته. وأطلّتْ بعض الرؤوس من الأبواب أو من أسطح المنازل، دون أنْ يظهر أحدهم يسير في الطريق.
الانفجار رغم قوّته، كان عاديّا ومُتكرّرا، وربّما أغلب الذين سمعوه لم تُصبْهم رغْبة في التطفّل أو الاستكشاف.
فيما هدأ صوت الإنْفجار، ما زالتْ النار متقدة تأكل الخشب والعجلات المطّاطيّة التي دسّها "نواف" وجماعته في البيت. فكان الدخان الأسْود قدْ زاد من قتامة سماء الأعظميّة.
ظلّ الصمْت مُخيّما على الحيّ لدقائق عديدة، عدا ما ينْبعث من أصوات خافتة، كطقْطقات صادرة من الخشب المُحترق.
ظلّ "نواف" من موقعه المرتفع، كنسر يرصد تحرّكات فئران علّها تأكل طُعْمه. لمْ تتجاوز الدقائق الخمْس، حتّى هبّت مرْكبات الجنود العراقيين صوب المكان، مُدجّجة بأسْلحتها، تسْبقها إنارتها الكاشفة.
تناول "نواف" رشاشه وجعل جعبته تتكئ على جدار مُتداع أمامه، مُصوّبا بحذر نحو الشارع، حيْث تعْبر سيّارات الشرطة.
تتقدّم السيارات ببطء وحذر، حتّى بات لا يفْصلها عن موقع الانفجار مائة متر. حينها اِرْتمى "أبو المجيد" وسط الشارع، تاركا لرشّاشه أنْ يبصق كلّ ما في جعْبته من رصاص دون رهبة... ظل ثابتا، لا شيء يُحرّكه عدا رشّاشه المُتحفّز المُلتصق بكتفه كذيل ثعبان مقطوع.
دبّت الفوضى في الجنود العراقيين، واخْتلّت وجهات العربات. فيما اِرْتمى بعض الجنود من العربات، ليواجهوا الرصاص القادم من رأس الشارع. غيْر أنّ "أبا الوليد" اِنْسحب مُسْرعا، ليتْرك لرفاقه مهمّة إلقاء صواريخ الكاتيوشا... كانت قذيفتان كافيتان لتسْحقا المرْكبات ومن فيها. وانسحبا لتبْقى وراءهما النيران المشْتعلة في العربات والأجساد المُتفحّمة، تُعين على إنارة الشارع المُظلم.
انسحبوا جميعهم عائدين إلى قاعدة انطلاقهم في ذلك المخزن المتداع. من حيث انطلقوا في انتظار أن يلتحق بهم نواف بعد أنْ يطمئنّ على موت كلّ أفراد الشرطة العراقيّة المدعومة بجنود أمريكيين، أو لعلّه كان يترصّد أي جنديّ لم يُصَبْ إصابة قاتلة، فيُرْديه قتيلا.
بقيَ "نواف" مُتسمّرا في موقعه ثابتا، يرْصد نتائج العمليّة التي لم تُبْق أحدا حيّا. اِبْتسم كأفعى أصابتْ هدفها. سحبَ رشاشه، وتراجع وهو يقفز على الجدران والسطوح، عائدا إلى موقعه من حيْث اِنطلق.
بعد العمليّة، قرّرت القوات الأمريكيّة أنْ تشنّ حملة على الحيّ بعد تضاعف العمليات خلال الشهر الحالي... كانت الطائرات قدْ أخذتْ موقعها في سماء الأعظميّة، وشرعتْ العربات والدبابات والمدرّعات في اختراق أنْسجة المدينة وشرايينها، تسْبقها غارات وحشيّة على البيوت والمنازل لمْ يسْبق لها مثيل.
كانت الطائرات تُلْقي حممها دون هوادة ودون تدْقيق... لا أحد في الشوارع يحْمل سلاحا، وحتّى البيوت التي تُقْصَفُ كانت آهلة بالأمّهات الثكلى والأطفال اليتامى والشيوخ والعجّز.

الآليات الزاحفة على الحيّ لا تترك للذبابة الزرْقاء مُتّسعا للهروب. لذلك كلّما تقدّمت الآليات، تُطلّ فُوهات البنادق والرشاشات من السّطوح والنوافذ، لتقْتنص أحدهم. فتردّ المدافع لتهْدم بيْتا أو زنْقة أو بناية..

وفيما كان "نواف" ورفاقه يترصّدون تقدّم الجند، سبقتْه طائرة مروحيّة بقذيفة، هدَمتْ المخزن ومن فيه، وكان رفاقه حينها ما زالوا لم يسْتردوا أنْفاسهم من العمليّة بعد. ولم يسْلم غيْر "نواف" الذي لا يزال يتنقّل من سطْح إلى سطح، ومن جدار إلى آخر... ليجد نفْسه في شارع جانبيّ، يَقيه حصار العناكب. غيْر أنّ حدْسه أخْطأ هذه المرّة، لمّا وَجَدَ نفْسه وجها لوجه مع ثلّة من الجنود، سبقوه بالرصاص ليصيبوه في فخْذه.

كان الأسبق ليندسّ بين ركام بناية متهدّمة، وأمكن له أن يتسلل بين الأنقاض ليخرج إلى شارع خلفيّ ويندسّ في بيت مهجور.

ظلّ يتصبّب عرقا وامتزجت الأتربة بالدماء حتى لم يعد يبين وجهه.. مزّق قميصه ليجعل منه عصابة على جرحه كي يكفّ النزيف. وقد ظلّت يده على الجرح والأخرى تمسك بسلاحه متأهبا.

حضرت "لينا" المنفيّة في تونس و "ماجدة" التي استشهدت منذ أيام.. أبي الذي قضت عليه الخيانة الفلسطينيّة في لبنان.. أخي الذي لم يستطيعوا جمع أشلائه من نقطة تفتيش فجّرها.. أخي "عزام" الذي ما زال معتقلا في السجون الإسرائيلية...

هل كُتب علينا أن ندفع حياتنا كلّها من أجل قضيّة لا تهمّنا وحدنا؟

أمي التي لم أرها منذ عشر سنوات وألمسها وأعانقها وأبكي كطفل على ركبتيها.. نحن عائلة وزّعنا دماءنا على كل القضايا القوميّة...

ظلّ ينزف رغم الضمادة التي وضعها على الجرح.. تصبّب العرق أكثر فأكثر و سال مع الدماء كرحيق... بدأ الدوار يلفه حتى فقَدَ وعْيه وظل يمسك سلاحه ولم يسقط من يده.

بسجن أبو غريب لا يزال "نواف" مُعلّقا من يديْه إلى السقْف، وقدْ جُرّد من ملابسه كاملة. جسده بفعل التعْذيب والبرْد صار أزرق، حتّى لم يعدْ يشْعر أنّ جسده ذاك له.
ظلّ لأيام لا يعْرف عددها، مُعلّقا كشاة مُعدّة للسلْخ، حتّى فَقَدَ الإحْساس بجسده وأطرافه.
حين فكّوا قيْده، تهاوى أرْضا كأنّ السلاسل كانت تُعمّده وتُساعده على الاِنْتصاب... تهاوى كتمثال القائد الفذّ ساعة اِحتلال بغداد . ولم يشْعر أنّ جسده لامَسَ الماء البارد الآسن على أرْض الزنْزانة.
اِنْحنى أحد الجنود إلى رقبته وثبّت بها سلسلة كشكيمة بغْل، وظلّ يجرّه بمعيّة جنْديّ آخر.
فيما تكفّل ثالث بتثْبيت هاتفه الجوال قُبالة بوتقة المشْهد.
ظلا يسْحبانه وهو يُحاول جاهدا أنْ يسْتعْمل قوائمه الأرْبع، كيْ لا تخْدش أرْضيّة السجن جسده المنْخور أصْلا. حاول... حاول... وحاول دون جدْوى.
تمادى في سحْبه، وتمادى الإسْمنْت في حفْر جسده. أطلّ بعْض الجنود من خلْف الزنْزانات وتقدّموا لإكمال مشْهد من مشاهد "عذاب المسيح"... حاول أحدهم أنْ يدقّ عصاه في مؤخّرته... حاول الآخر أنْ يقف فوق جسده المُمدّد على الأرْض، ليلْتقط له زميله صورة تاريخيّة لنْ تتكرّر أو ربما ستتكرّر كثيرا.
وثالث أطفأ سيجارته في إليته ...
ورابع... وخامس...
تركوه لدقائق يلْعَقُ جراحه، ويمْتصّ جسده من الأرْض قسْوتها. فيما اِبْتَعَد الجنود وتهامسوا بكلام لمْ يسْمعْه.
اقترب أحدهم ليساعده على الوقوف و قال بلهجة عراقيّة:
ـ أنت فلسطيني، ماذا تفعل في العراق؟
ـ أدرس
ـ (ضحكوا بسخرية) تدرس؟؟ قال يدرس... وهل تدرس مع تنظيم القاعدة؟ أم مع البعث.
ـ أقسم أنني جئت للدراسة.
ـ (شدّه من شعره بعنف ودفع برأسه إلى الحائط، فسالت بعض الدماء من رأسه)
أقسم أنني سأفعل بك ما سأفعله بأمك القحبة لو كانت هنا..
ـ (كتم غيضه) كنت أدافع عن أرض العراق... ألست عراقيا؟
ـ (أمسكه من خصيتيه وشدّ عليهما حتى تقيّأ) سأريك ماذا يحصل لك في العراق.
ثم دفعه ليسقط على أرض الزنزانة من جديد، ثم أعادوا جرّه مرّة أخرى إلى زنزانته، وأوْثقوه إلى الحائط بسلاسل تمْنع كلّ أطرافه من الحراك والعصْيان. وفيما ظلّ بعْضهم يلْتقط بعْض الصّور، غاب أحد الجنود لبعْض الوقْت ليُحضر مقصّا أشْبه بالذي يُسْتخدم في تشْذيب الورد.
أعادوا تثْبيت هواتفهم الجوالة نحو المشْهد المسيحيّ.. أمْسك الجنْديّ بقضيب "نواف" وأعْمل فيه المقصّ، لتسْقط تلك القطعة من اللحم على الأرض مُلطّخة بدماها..
دماء تحلّلتْ مع الماء الآسن في قاع الزنزانة، حتّى صارت الأرض دماء وغاب " نواف" عن وعْيه. حضرتِ الأنهار جميعا وآلام المسيح جميعها... حضر النخل والتراب والطين والخرائط وبغداد... حضر "عيسى" و"موسى" و"جبريل"... كلّ الأنبياء والرسل

والملائكة، يطلون من فوق الغرفة المفتوحة للسماء، وما هي بمفتوحة. كانت سورة "يس " ترفْرف كملاك أبيض قرب الله، وتنثر أحرفها وحكمتها.. خُيّل للناظر أنّ سماء بغداد انفطرتْ لتُلقي حممها. وأنّ منسوب المياه ارتفع في دجلة والفرات خوفا أو تشنجا... وأنّ نخلات البصرة انحنين قليلا ليخْفين خجلا من الإنسان... خُيّل للناظر أنّ جبالا بُسطتْ ووهادا رُفعتْ ورمالا نُثرتْ ومياها نَضَبتْ، كأنها شُربتْ أو سُرقتْ... حضر النخل والتراب والطين ولم يحْضر الخلاص.

ظلّ الجنود يتضاحكون ويُعيدون التثبّت منْ صُوَر اِلتقطوها في هواتفهم.

فيما تفطّن أحدهم إلى أنّ "نواف" قد فارق الحياة، ولا بدّ من التخلّص من جثّته.

ألقوا جثّته على أحد الأرصفة، غيْر بعيد عن جثّة أخرى وجدوها مُشوّهة أو مطعونة أو مقطوعة الأطراف لعراقيين وأجانب. ولا فرْق بين الجثّة والأخرى، عدا ما يجْعل منها ورقة سياسيّة لتنْظيم أو حركة أو حزْب.

المارة يعبرون إلى شؤونهم بحذر وحيطة، محاولين ما اسْتطاعوا أنْ يبتعدوا عن السيارات والدراجات والحفر وحتى الجثث الملقاة على قارعة الطريق، مخافة لغم يدَسّ هناك أو عبوة ناسفة.

فيما لا تزال الكلاب السائبة ـ وقد تضاعف عددها ـ تنهش الجثث وقد انتفختْ وتحللتْ وذاعتْ رائحتها في الأرجاء، تُعين الذباب الأزرق على الرقص والطنين ، فاسْتحالتْ الشوارع مزابل من جثث وقمامة ومياه آسنة، حتّى يسْتحيل على الواحد العبور دون أن يغطّي أنفه بيده أو بطرف ردائه.

الفصل التاسع

ذبح الرهينة

ما زالتْ "أنجيلا" قابعة بين براثن مُخْتطفيها، بنفْس الغرفة التي لا يفْصلها عن الخارج غيْر صوت الرصاص المُتقطّع، وأزيز الطائرات المُحلّقة.
دخل ذات الشيخ بنفْس لباسه ووقاره، وسألها:
- هل قرأت القرآن؟
- أحاول...
(قالتها وكأنها تناور... أو تحاول أن تفتكّ اعترافا أو غفرانا من ذلك الشيخ. قالتها لعلها تسْلم من شرّ قادم لا ريب فيه. علّ "قرآنهم هذا ينجيني" قالتها بينها وبين نفسها.
- طيّب... طيّب...
غادرها لبعض الدقائق، ثمّ عاد مع مجموعة أخرى، مُدجّجة بالصواريخ المحمولة والرشاشات... كانت وجوههم ورؤوسهم معصوبة، إلا من العيون المُشعّة... المُثيرة للخوف.
تقدّم اِثنان منهما وجانباها، يوجّهان أسلحتهما إلى صدْغها. فيما تكفّل ثالث بتوجيه عيْن الكاميرا إليها، وإلــى الواقف خلفها يقْرأ ورقة بين يديْه:
"بسم الله الرحمان الرحيم
والصلاة والسلام على أشْرف الأنبياء والمرْسلين
نحن تنْظيم القاعدة في بلاد الرافديْن، أتْممْنا بعوْن الله وحمْده أسْر الألمانيّة أنجيلا موردخاي، العاملة بمنظمة الأمم المتّحدة للإغاثة . ونحن نُوجّه النداء لسلطات الاحتلال الأمريكيّة الغاشمة لإطلاق سراح السجينات العراقيات، في أجل أقصاه يوميْن. وإلا سنُنفّذ في أسيرتنا شرْع الله رمْيا بالرصاص."
حين أكمل القراءة، اِنْسحبوا جميعا دون أنْ يتكلّم أحدهم ولو بالإشارة. فيما بقيتْ "أنجيلا" مُرْتعدة كسعْفة بفعل الريح. ثمّ وجّهتْ سؤالها للشيخ الذي ما زال مُتسمّرا، يُحرّك بأنامله حبّات سبْحته:
- هلْ سيقع إعدامي ؟
- الله ورسوله أعْلم... نحن سنُنفّذ شرْع الله.
- وهل الله أَمَرَ بإعدامي ؟
- "وقاتلوهم حيثما وجدْتموهم" صدق الله العظيم.
- وما ذنْبي ؟ أنا لا أحْمل سلاحا، ولسْتُ أمريكيّة ولا أُهدّد أحدا (وانهارتْ بالبكاء)
- (وهو يغادر) أنتِ وسيلة لا غيْر.
خرج الشيْخ دون أنْ ينْسى غلْق الغرْفة من الخارج للمرّة الأولى، وكأنّه أحسّ بخوف ما، أو هو الخوف من هروب الأسيرة التي قدْ يمنع هروبها من تنْفيذ شرْع الله.
تخيّلتْ أنها واقفة وظهْرها إلى حائط أو عمود، موثوقة اليديْن والساقيْن، وقدْ غطّوا وجْهها بكيس أسْود أو عصابة على بصرها، تمْنعها من أنْ ترى حتْفها... وأنّ مجموعة من

المُسلّحين يقفون صفّا واحدا، يُوجّهون فوهات رشاشاتهم إلى جسدها. فيما يقف زعيمهم رافعا يده إلى أعلى، ليُعْطي إشارة إطلاق الرصاص فوْر إنزال يده إلى الأسفل. بمجرّد أنْ يُعطي إذنه لهم، حتى تنْطلق الرصاصات متتالية في اتّجاه جسدها، لتفْتح فيه فوهات من الدم المتجمّد بفعْل الخوف... تخيّلتْ أنّ دَمَها لنْ يخْرج منها، إلا على شاكلة كريّات جامدة كحبّات مسبحة ذلك الشيخ.
وأنّ أحدهم ـ ربما لكبْت عربيّ يقْبع في أدْغال اللاوعْي ـ سيوجّه رشاشه لنهدها أو شفتها أو... وأنه سيكون سعيدا لو أصابتْ رصاصته هدفها. كأنه ينْتقم من المرأة الفاجرة أو من الغرب المُتحرّر.
حرّكتْ رأسها، لتنْفض تلك الأفكار على الأرض، وخمّنتْ أنّ إعدامها سيكون ذبْحا على طريقة ذلك الأسير الأمريكيّ الذي ذبحوه على مرْأى من شاشات العالم. وأنها بجرّة واحدة بذلك السكين، سيتأرْجح رأسها ويسْقط على التراب مُعفّرا.
تخيّلتْ حبْلا يُلفّ على عُنُقها في ساحة عامة، وهي تقف على كرْسيّ أو سطل أو صنْدوق... يُسْحب من تحْت أقْدامها، فيَتمطّط جسدها إلى الأسْفل دون أنْ تلمس ساقاها التراب، ودون أنْ تسْتطيع أنْ تفكّ الحبْل عنْ عُنُقها... فتبْقى جثة هامدة بعْد أنْ نَزَفَ جسدها بولا لاإراديّا.
يُشاع أنّ المشْنوق يتبوّل دون أنْ تكون له القدْرة على كبْح بوله... كذا كانت تُمرّر شريطا من الصوَر المُخْتلفة، ولا تدْري أيّ الطرق ستُنفّذ فيها.
مرّت الدقائق والساعات، كأنّ الكرة الأرْضيّة ضاعفتْ سُرْعة دَوَرانها، على أنّ الوضْع في العراق ـ خمّنتْ ـ أنه لا يُساعد عقارب الساعة على الدوران الطبيعيّ، بفعْل الأدْخنة والحرائق والقتامة والدماء...
وهْي تُقاد من غرْفتها إلى غرْفة أخْرى أشْبه بالسجن، تكفّل أحدهم بوضْع عصابة على عينيها، وهي جالسة على ركبتيْها.
وتكرّر مشْهد آلة التصْوير... غيْر أنه بعْد أنْ أغْمضوا عينيها لمْ تعدْ ترى شيئا، عدا آلة حادة كانت تُوضَع على رقبتها، دون أنْ تسْمع صوتا أو تحسّ بحركة سوى بعْض الرصاصات المتقطّعة الآتية من الخارج.
سمعتْ أحدهم يقول لها، أو يأمرها:
ـ قولي أشْهد لا إله إلا الله وأنّ محمّدا رسول الله.
ـ (لم تُعلّق ولم تنْتبه إلى كلامه، وكأنها اِعْتقدتْ أنّ الكلام لم يُوجّه إليْها)
حينها وخزها أحدهم، وكان الواقف خلفها، وهو المُمْسك بالسكين قائلا:
ـ قولي أشْهد أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله.

فهمتْ "أنجيلا" لحظتها أنّ الكلام يخصّها، وأنها المعنيّة بفعْل القول.. قول كأنه فاتحة لإعدامها أو مفتاح لدخول غرْفة الموت.
حضَر في ذهنها والدها و"نارمين" والإرهاب وتنْظيم القاعدة.. تخيّلتْ لحظتها أنّ الواقف خلْفها هو الشيخ "أسامة بن لادن" أو "الزرْقاوي" نفسه الذي نفّذ فعْل الذبْح في ذلك الأسير الأمريكي... حَضَر الرصاص والرماد والقصْف وصُوَر العراقيين في سجن أبو غريب على شاشات وسائل الإعلام...
قالتْ بارْتباك وغصّة:

ـ لنْ أعْترف بدِين الذبْح والإرهاب.
ـ (....)
تأهّب الواقف خلْفها بغضب لا مثيل له... سحَبَ نفسا عميقا... بسْمل وحَوْقَلَ، ثمّ ثبّت أصابعه عل السكّين، فيما ثبّت يده على رأس "أنجيلا". وبجرّة واحدة، لم يفْصل رأسها عن جسدها، ولكنّ الدماء انْفجرتْ لتسْقي جسدها، وتسْقي أرْض الغرْفة. دم حار، ترى البخار يصّعّد منه إلى سقف الغرْفة، ليرْسم وجوه الأنبياء جميعا.
حين سَحَبَ سكينه، سَحَبَ الآخر آلة التصْوير من المشْهد، فسقطتْ "أنجيلا" أرْضا. وكانت أصابعها الموثوقة لا زالتْ تتحرّك وتسْتغيث، ولا من مُجيب.
لحظتها كانت القدْس تتذرّع لخالقها، ويمرّ طيْف المسيح حاملا صبْره... تتعالى أصوات الأنبياء جميعا وتنْتفض الأرْواح خائفة مُرْتبكة.
.....
.....
صباحا عثرتْ الشرطة العراقيّة على جثّة "أنجيلا" ملقاة في أحد الشوارع، وبثّتْ قناة الجزيرة القطريّة تسْجيلا للمذْبحة.

الفصل العاشر

للأضحية معناها الحقيقي

بتلك المدينة الساحليّة... لا شيء يشي بأنها تنْتمي إلى الساحل التونسيّ عدا موقعها على الخرائط.
بنفْس مقهى "الأقواس" بمدينتي البائسة، كنتُ بزاوية كالمحاصر بجيوش من النمل الأحمر... أترشّف قهْوتي الصّباحيّة. وأمامي جريدة لحزب تونسيّ معارض تسْرد على صفحاتها القليلة بعض الأخبار الممنوعة عن البوْح:
"اليوم العالمي لحقوق الإنسان في ظلّ المنع والمُحاصرة"
"حرْب قائمات تسْبق مؤتمرات اتّحاد الشغل"
"مع قناة الجزيرة، نواب خائفون واتّصالات مقْطوعة"
.....
الصفحات على قلّتها، تسْحبكَ إلى عمْق البرْكة، وتُحيلكَ لـمَشاهِد لم تألفْها العيْن ولا الذاكرة.
أحدهم حذّرني من صحيفة معارضة، وآخر لا يعرف غير اسم الحزب الحاكم، وثالث يسْأل إنْ كانت الأكشاك تبيع مثل تلك الممنوعات.. ورابع وخامس...
ولا شيء غيْر الرغْبة في إحراق الخرائط وتعطيل البوصلات. كأني اللحظة أمام "جاك داريدا" وهو يقول:
"هذا عجْزي، هذه الذاكرة المُعاقة، إنه موضوعنا هنا عن شكواي، إنه اِعْتراضي..."
وأنتَ تقْرأ وتُشاهد وتُحلل... إنما أنتَ تُحاول أنْ تفْهم الجسد. حتّى وأنتَ تمرّ على مفاهيم حقوق الإنسان والحروب والإعلام والخرائط والجغرافيا والتاريخ...
"هذا الجسد الذي اِختفى وراء النصّ والذي أصْبح محلّ قراءات وتأويلات" كما يقول "شوقي الزين".
ولا ننْسى أطروحات "فوكو" عن الجسد والجنْس والسلطة والجنون.
....لا أُبْدي اهتماما بأيّ فكْر أو إيديولوجيا وأنا بهذا المقهى، عدا ما يدور من نقاشات حول حروب العراق وفلسطين وتنظيم القاعدة. مع ذلك أحاولُ أنْ أخرج دائما بالحوار من طاولة التشْريح الفقْهيّة، حتّى لا أتّهم بالانتماء إلى التنظيمات السلفيّة.
لا تهمّني كلّ هذه المسائل رغْم أنّ مثل تلك الحوارات تُخْرجني لما يشوبها من نقاش بيزنطيّ، وتعصّب يتبنّاه البعْض ويُدافع عنه.
لذلك كثيرا ما أنْغمس في لعب الورق لساعات، هروبا من الفكر الرجْعيّ أو خطاب الخصْيان.
أنتَ إذنْ، إما في مُسْتنْقع الفكر الغيْبيّ، أو في خنْدق الهلْوسات المائعة، تجْترّ معها خُزعْبلات النتائج الرياضيّة وحياة الفنانين والمائعين والخصْيان و آخر تقْليعات الأغاني الغرْبيّة والشرْقيّة الهابطة.
النادل يُوزّع على الحرفاء شيئا من الفُكاهة، كلما شاكسه أحدهم أو طلب منه كأسا من الماء، يعْتقد أنه الملك هنا بهذه المقْهى... يُوزّع الطلبات حسْب رغْبته، ولمنْ يُريد.

وقدْ تطْلب منه قهوة أو كأسا من الشاي، فيرْفض أو يطلب منك مُغادرة المقهى، بفذْلكة اِعْتادها منه الجميع.

حين هممْتُ بالمُغادرة، رنّ هاتفي الجوال، فجاء صوت حبيبتي مسْبوقا بضحكتها العسليّة.

لسْتُ بخيْر هذا الصباح، مع ذلك لا بدّ أنّ أبْتسم لأمرّر لها اِرْتياحا ما:

ـ صباح الخير (قالتْ)

ـ صباح الحبّ... صباح الياسمين حبيبتي.

ـ أين أنتَ الآن؟

ـ بالمقهى كالعادة... أمامي صحيفة وقهوتي ككلّ صباح.

ـ كلما أطلبكَ أجدك بالمقهى...

ـ لا يهمّ... هلْ هناك جديد؟

ـ لا شيء، أردْتُ أنْ أسمع صوتكَ.

ـ أحبّكِ...

ـ وأنا أيْضا عزيزي... على كلّ أردْتُ الاطمئنان عليكَ فقط . سأطْلبكَ ليلا كالعادة .

ـ إذن إلى اللقاء عزيزتي.

ـ إلى اللقاء.

غادرْتُ المقْهى في اتّجاه البيْت. وجدْتُ رسالة وصلتْني صباحا، دون أنْ أتعرّف صاحبها. فتحْتُ الظرْف بلهْفة وقرأتُ:

"بسم الله الرحمان الرحيم

لنْ أقول رفيقي هذه المرّة... أقول أخي في الإسلام. مُتمنّيا من الله سبحانه وتعالى، أنْ يهْديكَ إلى طريقه المسْتقيم / إلى الإسلام.

وبعْد:

بعوْن الله وبفضله نوشك أنْ نُحقّق شرْع الله في أرضه. ستسْمع قريبا ما يُحقّقه الإسلام على أرْض العدوّ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

لمْ أتحقّقْ من الرسالة جيّدا، وكدْتُ أشكّك في مصْدرها، غيْر أنّ خطّه كان هوّ. مع ذلك هذه المرّة لمْ أفكّر في الردّ على رسالته. ربّما خمّنْتُ أنّه غيّر مقرّ إقامته أو هاجر نهائيا. مع أنّ الرسالة ـ ووفْقا لطابع بريدها ـ كانت قادمة من دمشق.

لمْ أتفاجأ حتْما بحدّة خطابه ورغْبته في الانتقام من الخونة والجواسيس... إنما ما فاجأني هو الخطاب الفقْهيّ الذي ضمّخ به رسالته، وحوّلها إلى خطبة جمعة.

كأني أقرأ بيانا لتنْظيم القاعدة قبْل أو بعْد هجوم على إحدى المصالح الغرْبيّة.

أقْرأ الرسالة، وأعيد ترْتيب أفْكاري فتحْضر رسائله السّابقة مُشعّة بالنقْمة والثورة والتمرّد على السلفيّ والفقْهيّ والدينيّ... كان يساريّا لا تفارق خطاباته الأفكار الماركسيّة والمفاهيم الطبقيّة وجدليّة التاريخ و... لذلك كنتُ ألْتقي معه في فكْره وهمومه، كلّما تجادلْنا ـ على الورق ـ حوْل التوزيع العادل للثّروات وهموم البروليتاريا والرأسماليّة البغيضة والعوْلمة والمبادئ الحقوقيّة والإنسانيّة...

أمّا الآن.....
ما الذي يجْمعني بكَ يا صديقي ؟ وكيْف يكون اليساريّ يمينيّا ؟
بأيّ المفاتيح فتحْتَ الأبْواب لتدْخل عالمهم ؟ هل اِنْتصَر "بن لادن" على "ماركس" ؟ أمْ اِنْتَصَر الجهاد على الثورة ؟ هل اِنتصر الحزام النّاسف على المسيرات والاعتصامات والإضرابات والعصْيان المدنيّ؟ أمْ هي البنْدقيّة أيّا كان حاملها؟
هل ؟ وماذا ؟ وكيف ؟ وأيْن ؟
.....
طويْتُ الرسالة وأوْدعْتها دُرْج مكتبي، واسْتلْقيْتُ على ظهْري مُسلّما نفْسي للكسل اليوميّ... مررْتُ بجهاز التحكّم إلى الجزيرة القطريّة، وهْي تُعْلن إمضاء "نوري المالكي" رئيس الوزراء العراقيّ على قرار إعْدام "صدّام حسين".
ابْتسمْتُ بسُخْرية المنْتصر، مُتهكّما على الحكام أجمعين. سدّد الله خُطاهم وحماهم وأرْشدهم إلى الطريق السويّ. تلك نهاية الطاغية أيها البطل المقْدام. وأنتَ أيها البطل القادم على دبّابة أمريكيّة، ستحْصدُ نتائج غبائك، وستعْرف أنّ الطغْيان نبْتة نبتتْ في صحْرائنا العربيّة. كلّما قطفْتَ واحدة، نبتتْ مكانها نبْتة أخرى... وهكذا إلى أنْ يرث الله الأرْض وما عليْها.
صباح عيد الأضحى، والكلّ منْشغل بما ترك إبراهيم لنا عوض ابنه... قيل نحن شعب لا يأكل حتّى يجوع. وقيل إذا أكلْنا فلا نشْبع. ويُشاع نحن شعب كلّما أكل جاع. وإذا جاع اِسْتكان، على خلاف شعوب الأرْض جميعا، إذا جاعتْ انتقمت.
تعْبق الشوارع والأزقّة والأحياء، برائحة المشْويّ. حتّى اِسْتحالتْ السماء خرْفانا طائرة، تكْفي شعوب الأرْض قاطبة.
رغْم الأعياد العديدة التي نحتفل بها، إلا أنها لا تُمثّل عندي الفرح مُطلقا. وخاصة هذا العيد الذي أطلّ مُتثاقلا ومشْحونا بالسواد والقتامة، على أنه يوم جميل وهادئ.
لمْ أتبيّن هذه المشاعر المُتضاربة، ولمْ أسْتطع تفْكيك أيْقوناتها. فقط حضرتْ هذا الصباح رسالة "إيراد" وبغداد وأبو غريب وفلسطين و"لينا" و "ماجدة" و "أبو مصعب"... والخلايا النائمة للتنْظيمات الإسلاميّة.
تمام الثامنة، كانت القنوات التلفزيّة تُمرّر الفاجعة، بصُوَر زلتْ على صدْغي كإسْفلْت ساخن أحْرق شراييني.
كانت كلّ القنوات التلفزيّة، تُمرّر لحظة إعدام صدام حسين. بعض المُلثّمين، قارب عددهم الخمْسة أو ربّما أكثر بقليل، يُحيطون به في مكان داخليّ، خمّنْتُ أنّه أُعدّ له خصّيصا. دار حوار بينه وبين أحدهم، ربّما حول عصابة كانوا يريدون لفّها على عيونه، لئلا يُبْصر حتْفه. مع ذلك كان الرفْض يصْدح من عينيه وجبْهته.
لفّوا الحبْل على عُنقه، وأشاروا له ليتقدّم حيْثُ الهوّة التي سيَتَدلّى فيها حتّى الموت.
إنهم يُضحّون به فعْلا، بمثْل ما أراد أنْ يُضحّي إبراهيم بابْنه. كأنّ الشعْب العراقيّ، يقول أننا نُعيد للأضْحية معْناها وحقيقتها.
جاءني صوت شيعيّ يزْعم أنّ إبراهيم ذبح ابنه فعلا، ولمْ يُرْسل له الله كبْشا بديلا. ولكنّ الناس والتابعين، تخيّلوه كيْ لا يذْبحوا أبْناءهم. لذلك نحن نُصحّح تاريخ الديانات، ونُعيد الحقيقة إلى نصابها.
قلتُ له بصوْت خفيّ لئلا يكْتشفوني:
ـ أكُلّ الشعوب ستُضحّي بحكّامها؟

ـ اِفعلوا ما تُؤمرون به... اليوم صدّام، وغدا "علاّم" وبعْده "السابع" وإثره "الفاتح" ... هكذا فقط ستُنفّذون شرْع الله.
ـ أيها الوغْد وأمريكا..
ـ لا دخْل لها في شؤوننا... فهل هي من أتتْ بالحجّاج ؟ وهل ذبحتْ "عثمان" وقتلتْ "الحسن" و "الحسين" وأشعلتْ الفتْنة الكبْرى.... ؟ بالطبع لا.
فلماذا الآن نحمّلها أوزارنا؟

.....
قرأتُ على الشاشة: مُقْتدى... مُقْتدى... مُقْتدى
وقرأتُ: "هاذي المرْجلة"
وقرأتُ: أشهد أنّ لا إله إلا الله
وقرأتُ كلاما لمْ يُكتبْ. والبقيّة تأتي .....
كأني الآن أقرأ "أنشودة المطر" للسياب أو قصيدة "البراءة" لمظفّر النواب.
مرّ المشْهد المُتكرّر ـ عبْر بوتقة الإبحار ـ إلى الذاكرة.. قلّبَتْه على وُجوهه، ولم تُحلّل مضامينه ولا فكّتْ طلاسمه، فألْقتْه إلى الخارج. غير أنّ المشْهد عاد فارضا حبال سطْوته، وشَنَقَ الحدث في ذاكرتي بذات الحبْل المُعلّق في سقْف الشاشة من الداخل.
أسْرعتْ دمائي حارة في شراييني، تمرّ بالقلب فتبْرد وتتكلّس... فأشْعر أنّ القلب سينفطر. اِغتال القلب نبضه، فبردتْ أطرافي. وبتّ أشعر أنّ دمائي صارتْ حارة، تغلي كآنية بالأناجيل والكتب والشرائع ففاض الحبر... هي الأنهار تتّقد بما ألقى المغول من الكتب لتمرّ الجيوش.
أهذا عيد ؟ أهذي المخازي هي الأعياد تُسْعدنا، ونحتفل؟
يـــاااا كم نحتفل؟
لا زلتُ أمام جثمانه أتقبّل التعازي من الغيورين والمغْمورين والجهلة والخونة والجواسيس والشيعة والأكراد وآل سعود وآل نبْهان وآل سحنون وآل البيت جميعا... لم يتخلّف إلا قادتنا وساستنا وحكامنا وولاتنا وملوكنا.... لم يتخلّف إلا هم.
حتّى ضحايا "الأنفال" حضروا ضاحكين. وحضر ضحايا "الدجيل" وشعب الكويت، نكاية في البطل الغبيّ أو نكاية في الأبطال القادمين.

كان اليوم أشبه بمحرقة أُعدّتْ لليهود، ولكنها ليستْ لستّة ملايين كما يزعمون. كانت محرقة أعدّتْ لي وحْدي.
وبعد قرن أو أقلّ بقليل، يصبح حرْقي قضيّة قوميّة، ويُدان كلّ من يشكك في مصداقيّتها. وكلّ من يتهكّم يعدّ معاديا للساميّة ومُدانا بتهمة الإرهاب.
كان اليوم رماديا كأعيادنا قاطبة.. كتاريخنا... كحكامنا... كسجوننا... من فلسطين إلى الصومال إلى اليمن السعيد ... لشيوخ النفط، لحكام الوحدة والتجديد والتغيير والثورة والنهضة... ولا شيء غيْر إعلامنا العابق بالتملّق والسطحيّة وعرْض لحمنا البضّ الراقص على نغمات "الديسكو" و"الراي" و"الهيب هوب"...
وأنتَ تسْمع مُلخّص الأحداث الوطنيّة والعربيّة في وسائل الإعلام، ينْخركَ القيء وتنْخرك الحمّى، من أوطان لا تحتفل بغيْر نشرات الرياضة وأخبار الزعماء: قال الملك... عاش الملك... غيّر الملك... قرّر الرئيس... أما أنا وأنتَ وهُم، ففي مُسْتنْقع يقْبعون.

أكملتُ يومي أتابع تناحر الفصائل الفلسطينيّة حول السلطة، بين حركة "فتح" المدعومة من حكوماتنا، و"حماس" المتّهمة بالإرهاب.
كيف الخروج من هذا الإسفلت الهاجم؟
إما الخمرة أو المرأة أو الكتابة ...
وأما الكتابة، فلا شيء في جعبتي الآن أضمّخ به أوراقي. ولا شيء بالمثل يستحقّ أنْ تكتب له أو عنه. وإن كتبْتَ... ما الذي ستغيّره أيها البطل ؟ لا شيء...
إذن فالمرأة خياري الثاني...
رفعْتُ هاتفي الجوال، وبحثْتُ بين أرقامه عن إحدى مومساتي الجميلات... فتوقّف إصبعي على رقم "ليلى".
- ألو "ليلى"
- مساء الخير Ça va
- Ça va bien
- ما الذي دعاكَ إليّ؟
- أريد ليلة معكِ تُخرجني من هذا الإسفلت... أنا في حالة نفسيّة يُرثى لها.
- بدون مُقدّمات؟
- بدون مُقدّمات.
- (بدلال) حاضر سيّدي...
لم تدم المكالمة أكثر من دقيقتين، وأسْرعتُ إلى أول سيارة أجرة تُقلّني نحو المنطقة السياحيّة، حيث اِتّفقنا على النزل الذي سننزل فيه.
حين وصلتُ، كانت جالسة ببهو النزل تترشّف كأسا من "الويسكي"... جلستُ إليها، وطلبتُ مثل ما طلبتْ وسألتها:
- لم تتردّدي هذه المرّة كعادتكِ.
- ببساطة لأنّ زوجي في باريس منذ أسبوع.
- في باريس ؟ وماذا يفعل في باريس؟
- أخته ستعود إلى تونس في عطلة... سيتكفّل بمساعدتها، باعتبار أنّ زوجها لن يأتي معها... المهم ما هي أحوالكَ ؟
- دعْكِ من أحوالي الآن... هيا نحجز غرفتين، وسنُكمل حديثنا هناك.
- أنا حجزْتُ الغرفة رقم 5001
(نهضَتْ بعد أنْ أكملت كأسها)
أحجز غرفتكَ، ثمّ اِلتحق بي.

بعد أقلّ من عشْر دقائق، كنا بذات الغرفة 5001. تمدّدتُ على السرير بملابسي، والسيجارة لا زالت متّقدة. فيما خلعتْ "ليلى" معطفها وتمدّدتْ بجانبي، وقدْ أسْندتْ رأسها إلى صدْري.
ألقيتُ السيجارة بإهمال على الأرض واحْتضنْتها، محاولا أنْ أنفض منْ ذاكرتي أحداث العالم كلّه. مرّرتُ شفاهي على خدّيها ورقبتها، فأحستُ بحبات الرمان تنْتفض تحت أصابعي، وتضاعفتْ حرارة جسدها حتّى ذابتْ كقطعة سكّر في كأس من الماء.

ولم أنتبه إلى أصابعي وهْي تفكّ أزرار ملابسها، وتنْزلق بين تضاريس جسدها. دون أن تُبْدي "ليلى" حراكا، عدا ما ينْتفض من جسدها بحكم الغريزة.
كنتُ كالمجنون أمرّ بأناملي وشفاهي على كلّ حبّة من جسدها، حتّى اِنْتفضتْ وذْيان الرغبة وامْتزجتْ بالآهات.
قالتْ وقدْ أكملْتُ مهمّتي الهادفة، ونزلْتُ من فوق صهْوتها الجامحة:
ـ لم أشعر يوما أنني متزوّجة، إلا لمّا أكون بحضْنكَ. أما زوجي، فهو بارد كالثلج، كأنه يُفْرغ نزوته بقبْضة يده.
ابْتسمْتُ اِبْتسامة ساخرة، وطبْطبْتُ على إليتها، قائلا:
ـ اسْتحمّي الآن قبل أنْ ننْزل للعشاء.
نهضتْ عارية، كملاك رُسِم سرْياليّا، في اتّجاه الحمام. حتّى وصلني صوت الماء المنسدل بشهْوة على تفاصيل جسدها. وقدْ حضرتْ بذهني قولة غالي شكري: "الجنس علاقة عرضيّة لقتل الوقت".
"ليلى" زوجة إطار حكوميّ، يعمل بمدينة مجاورة لمدينتي. وقد قدما من مدينة بالجنوب التونسيّ . وزوجها هذا اِبن ثريّ وفّر له والده من المال أكثر مما تُوفّره له الوظيفة بعشرات المرات، تربطه رابطة وثيقة بالعائلة المالكة، وله شؤون يديرها معهم.
وأذكر أنها حضرتْ في إحدى الأمسيات الشعريّة، وكنتُ مُحمّلا بمجموعة من الدواوين لبيْعها، وبالطبع لم أبعْ منها غيْر خمس نسخ.
لم أكن أعرفها سابقا حين تقدّمتْ منّي واقْترحتْ أنْ تُساعدني على بيع ما تبقّى من الدواوين... فوافقْتُ.
سلّمْتها كلّ النسخ، مصحوبة بنسْخة مُهداة بخطّ يدي، ورقم هاتفي الجوال. واكتشفْتُ لاحقا أنّ النسخ اشْترتْها لنفْسها، وبقيتْ تُماطلني وتجد الحجج لمقابلتي، فتسلّمني ثمن نسْختيْن أو أكثر. حتّى اتّفقتْ معي على لقاء في أحد النزل، فقابلْتها.
قالتْ وهي لا تزال واقفة:
ـ هل تُساعدني على إنزال حقيبتي من الغرْفة؟
ـ بالطبع.
ـ ... ومعي في الحقيبة ثمن بقيّة النسخ من كتابكَ.
حين اصْطحبْتها إلى غرْفتها، أغْلقتِ الغرفة من الداخل، وراودتْني على جسدها، فاسْتسْلمتُ لإغرائها دون أيّ مُقاومة.
ومنذ تلك اللحظة، صارتْ لقاءاتنا مُتكرّرة. غيْر أنني لا أحتاجها إلا متى أطبقت السماء على أنْفاسي، وضاقتْ الأرْجاء بأوجاعي، وحاصرتْني المتاهة حتّى صرْتُ المتاهة فهْي من دون نسائي، لا تفْقه شيئا، عدا بسْط رغْبتها على السرير. وهي لا تطلب مالا، ولا تُجادلك في الثقافة ولا في السياسة ولا في الفنّ ولا حتّى في الملابس والموضة. إنها فقط تشْتهيني، فأشْتهيها بمُتْعة لا مثيل لها. وحين تحتاجني تجدني، وأحتاجها فأجدها... نعم علاقة عرضيّة ولكنها نفعيّة تجعلني أتلذذ بالانتقام من زوجها وهي معي.. كأن اللذّة نقمة وليست جنسا. إنها النقمة من زوجها الذي يدوس الفقراء بحذائه مع الجشعين والمتنفّذين.
خرَجتْ من الحمام أكثر إغراء، تلفّ جسدها بفوطة بين أعلى النهد وأعلى الفخذيْن... وشَعرها الفحْميّ، ينْسدل بسلاسة على ظهرها.

اِتّجهتْ إلى المرآة، وقد سحبتْ علبة التجميل من حقيبتها اليدويّة، وبدأتْ بالشفاه تُرتّب عليْها لونا قرْمزيّا مُشعّا زاد في إثارتي.
نهضْتُ من السرير، واتّجهْتُ إليْها... وقفْتُ خلْفها ومددْتُ أصابعي لأفكّ الفوطة. فيما ارْتمتْ شفاهي على رقبتها المرْمريّة، فلمْ تُمانع. غيْر أنها شدّتْ على الفوطة، كيْ لا أنْزعها. وقالتْ:
ـ ليْس الآن... أخاف عليْك أنْ تموت. ننْزل للعشاء أولا.
ـ ولماذا أموت ؟ هلْ عنْدكِ شكّ في قدراتي؟
ـ لا ... ولكن اِجْمع قواكَ إلى آخر الليل.

بعد العشاء، أكملْنا الليل في العلْبة الليْليّة التابعة للنزل، نرقص بجنون على نغمات كلّ الأغاني، ونمْزج رغبة الجسد في التحرّر بالجعة.
كنتُ أشْرب بطريقة لم أعْهدْها... كيْ أطرد من ذاكرتي أفكارا مُكدّسة كأشْلاء الموتى: بغداد على بيروت على حيفا على الجوع على الرفاق الذين خانوا على...
كلّما سكبْتُ في فوهتي كأسا، سقطتْ فكرة أو حادثة... هكذا حتّى الصباح.
صباحا، أفقْتُ على أصابع الشمس تخْترق البلّور، وتدْخل للغرْفة. كانت الساعة العاشرة... لمْلمْتُ أفكاري، فلم أجد "ليلى". فقط تركتْ شفاهها عالقة على مرآة الغرفة، بلون قرْمزيّ.

الفصل الحادي عشر

فريضة السعي

أبو مصعب ما زال واقفا بالقاعة الكبرى لمطار باريس كغيره من المسافرين، ماسكا بجواز سفره... تاركا لحقيبته مسافة من الراحة، كيْ تُقرْفص على الأرض.
يحاول ما اسْتطاع إخفاء دهشته وخوفه من مجهول لا يُمكن توقّعه. كان جواز سفره مُثبّتا بهويّة أخرى، إلا أنه لم يتساءل عن سرّ تغْيير اسمه وكُنْيته، فهو ليس معلوما عند الأجهزة الرسميّة، ولا عند البوليس الدوليّ، ولم يقم بفعل يُمكن أنْ يتّهم من أجله.
مع ذلك لا يهمّ.....
ما يعْنينه الآن، هو المغادرة إلى الولايات المتّحدة، حيْث سبقه "أمير التوم" و"ميلود عبْد القادر".

و يبدو أنّ بقاءه هنا، ومنْعه من السفر معهم ـ ربما ـ يعود إلى خوفهم منْه. أو ربما كانوا يتوقّعون أنْ ينْسلخ عنهم، ويبقى هنا في "باريس". فهو كثيرا ما أبْدى تخوّفا ومُعارضة لكثير من المسائل التي ناقشْوها. منها تردّده في القيام بعمل اسْتشْهاديّ في الولايات المتّحدة، تحديدا تفْجير تمثال الحريّة.
لماذا تمثال الحريّة ؟ لماذا الولايات المتّحدة ؟ قالوا أنّ أمريكا هيّ الشيطان الأكبر، وهي التي احتلّتْ بيوتنا وحرّضتْ ـ ولا تزال ـ اليهود على التحرّش بنا واحْتلال أراضينا. وهي التي نصّبتْ حكوماتنا الكرْتونيّة، وهي التي.....
أما تمثال الحريّة، فهو الرمز الفخْريّ لمبادئهم وقيمهم التي كثيرا ما ينهقون بها، ويعلّقونها على جباههم ودباباتهم وطائراتهم وأسْلحتهم... و هم يصدّقون.
"الحريّة"... ما معنى الحريّة ؟ وماذا تعْني؟ ولماذا أمريكا تحديدا لها مثل هذا الرمز الضخم للحريّة؟ هل لأنها مُمثلتها الوحيدة ؟ هل هي التي تصْنع الحريّة وتصدّرها؟
ما جعلني أقرّر المشاركة في هذا العمل النضاليّ، هو رفْضي لأنْ يموت الأبرياء. تمثال مهما كان حجمه وقيمته، لا يعني شيئا أمام موت بريء واحد ولو كان يهوديّا.
لذلك، كنتُ ضدّ تفْجير أبراج نيويورك، وموت المئات فيه. مع ذلك لمْ أصرّح بذلك لأحد من الإخوة، حتّى لا أُتّهم بالردّة والخيانة والكفر.
"أمّا الآن، فتفْجير تمثال الحريّة... مهمّ جدّا أنْ تُفجّر الرموز. هذا أهمّ وسأكون أوّل الفاعلين." ـ علّق بهمس.
أنا ما يهمّني في المسْألة أن أنتقم لوطني و عائلتي و شرفي.
لستُ اسلاميّا و لا استشهاديّا و لا مناضلا... فقط أحمل جواز النقمة في جيوبي وشحنة من الغيظ لأنفّذ حكمي في من شرّد أهلي.. حكمي أنا وحدي. لا حكم الله و لا حكم الخليفة.
لهذا انخرطت في هذا التنظيم ... أقول وصلتُ إليه صدفة، وسأتشبّث به حتى أحقق انتقامي.
ولو كان التنظيم يساريا لفعلت نفس الشيء، ولو كان بعثيا.. ماجوسيا.. يمينيا.. قوميا.. شوفينيا.. نعم لفعلتُ نفس الشيء.

أنا باختصار ضدّ عدوّي مع أيّ عدوّ آخر، ولأنني أحترم الإنسان، حتى وهو برتبة حيوان، فإني سأنفّذ حكمي في رمزهم الذي يتباهون به، والذي يعتبرونه رمزهم و كنيتهم و "هويتهم".. إنهم الحرية بكل دلالاتها، لذلك تمنحهم تلك الصفة أن يفتكّوها من الآخر.

دَخَلَ صوت دون إذن إلى بوتقة السمع، يُشير إلى انطلاق الرحلة نحو "واشنطن" بعد عشْر دقائق.

اِنْحنيْتُ لأتناول الحقيبة، فيما ازْدادتْ دقّات القلب في الهيَجان. وتقدّمْتُ بخطوات وئيدة، نحو الممرّ المُخصّص لختْم الوثائق.
كلما تقدّمْتُ خطْوة ازْددْتُ خوفا ورهبة، وتضاعفتْ سرعة الدم الساخن في شراييني.
أُصمد... أُصْمد... فالخوف قدْ يفْضحكَ ويورّطكَ.
أُصْمد... أُصمدْ... إنْ كشفوك ستكون نهايتكَ ونهاية البقيّة.
مددْتُ جواز السّفر وتذكرة الطائرة، وأبْعدْتُ بوْتقة الإبصار حتّى لا تكْشفني عيوني.
وبطرْف العيْن رأيْتُ الآنسة القابعة خلْف المكتب، تُحمْلق فيّ فزدْتُ اِرْتباكا أخْفيْته قدْر ما أسْتطيع.
اِنْتصبتِ الآنسة واقفة، وتراجعتْ إلى الخلف...
تجمّدتْ كلّ دمائي، وتوقّف القلب عن الخفقان وأحْسستُ بصداع ألمّ برأسي، وفكّرْتُ في الهروب.
اِلْتفتُّ خلْفي، فإذا بعشرات من الأشخاص يقفون في تراصّ داخل نفْس الممرّ. وأمّا الهروب إلى الأمام أشْبه بالارتماء في هوّة.
لا مكان للتراجع، فما بالك بالهروب، والأمْن يُحاصر المطار ويتوزّع داخله... شرعْتُ في قراءة سورة "يَسِ".
سحبتْ الآنسة بعْض الأوراق من خزانة وراءها، وعادتْ لتجْلس في مكانها... كتبتْ وخَتَمتْ، ثمّ ناولتْني جوازي وأشارتْ براحة كفّها للمسافر المُوالي. حينها سحبْتُ نَفَسا عميقا... بسْملْتُ وحمْدلْتُ وقرأتُ أعوذ بربّ الفلق، وأكملْتُ طريقي بنفْس الممرّ، في اتّجاه الطائرة بعْد أنْ تسلّمْتُ حقيبتي من الجهة الأخرى.
جلسْتُ في المكان المُخصّص لي داخل الطائرة، أعدّ الثواني والدقائق في انْتظار الإقلاع.
فأنا لنْ أطْمئنّ ما دامت الطائرة لم تحلق في السماء.
و بمجرّد أنْ أقْلعتْ، خلدْتُ لنوم لا شبيه له... لم أنمْ منْذ سنوات نوما هادئا ومُطمئنا.
فالطائرة أكثر الأماكن أمانا بالنسْبة إلى مثْلي.
لا تنْتظرْ أنْ يدْخل عليْكَ أحدهم ليعْتقلكَ، أو يقْتحم عليْكَ البوليس أو الجيْش مخْدعَكَ، لمّا تكون في أيّ منزل أو بيْت على الأرْض.
أمّا هنا، فحتّى الزلازل لا تطالكَ....
لمْ أفقْ ـ منذُ ربطْتُ حولي حزام الأمان ـ إلا لمّا تكرّر الصوت الذي افتتحْنا به الرّحلة:

- Fasten your seat belts.
ثم بالفرنسية
- Attachez vos ceintures .

فركْتُ عيوني، غيْر مُصدّق أنني في مأمن إلى الآن، حتّى وأنا على متْن طائرة مُعلّقة في السّماء، كأنّ النوم علّمني ما لمْ أكنْ أعْلم... كأنّ النوْم كان محْرابا لنزول وحْيٍ لم أتذكّرْه كاملا.
كأنّ النوْم ذكّرني أنّني مُهدّد بالموت و القتْل والاعتقال، طالما أنني لسْتُ إلا عربيّا.
وماذا يعْني أنّك على متْن طائرة ؟ ألا يمْنع الأوغاد من الوُصول إليكَ ؟ ألا يمْنعهم الدّهاء وخبْرتهم بالتّفْتيش من العثور عليْكَ ؟ ومنْ قال أنّهم لمْ يدسّوا لكَ أحَدَ الجواسيس أو الخَوَنة مع الركّاب داخل الطائرة ؟
دارتْ بخلدي الهواجس، حتّى أنّي بتّ ألْتفتُ يُمْنة ويُسْرة وإلى الخلْف، مُحاولا التعرّف على وُجوه عربيّة داخل الطائرة.
حطّت الطائرة بأمان على أرْض المطار، ونزلْتُ السلّمَ مُحاولا أنْ أُخْفي خوفا يترقْرق في عينيّ، ورعْشة كلّما تقدّمْتُ إلى مصْلحة الجوازات تضاعفتْ.
عبرْتُ المطار بأمان رغْم نظرة الشكّ والرّيبة التي لاحظْتها في عيون المُوظّفين، وهم يُكْملون إجراءات الدخول للأراضي الأمريكيّة.
لا زلْتُ بنفْس الممرّ في طريقي إلى الخارج، مُحمْلقا في عيون كلّ الذين تمرّ بهم بوْتقة الإبْصار، علّي أتعرّف على أحد الإخوان الذين سبَقوني إلي هنا.
ماذا لو لمْ يسْبقْني أحد منهم ؟ إلى أيْن سأتوجّه ؟ ماذا سأفعل ؟ لا مال... لا علاقات... ولا برْنامج سطّرْته مُسْبقا لتفادي هذا المأزق...
حاولْتُ ما اسْتطعْتُ أنْ أمْسحَ وجوه كلّ الواقفين والجالسين والعابرين... دون جدْوى.
توقّفْتُ قليلا، علّي ألْفتُ انْتباه أحدهم بتوقّفي ذاك. غيْر أنّ مُحاولتي لمْ تُثمر غيْر مزيد من القلق.
أكْملْتُ سيْري، كمنْ يمْشي على حبْل مُعلّق فوق هاوية... حتّى وجدْتُ نفْسي خارج الباب الرئيسيّ، مُصْطدما بآلاف السيّارات الواقفة والمُتوقّفة... بضائع تُرْفع، وبضائع تُشْحن وأخْرى يدْفعونها أو يرْفعونها إلى السيارات أو الشاحنات... مُنْدهشا في ذات الوقْت من سيارات التاكسي الفارهة، الشبيهة بسيارات كبار الشخْصيات عنْدنا في العراق.
أذْكر أنّ سيارة رأيْتُ شبيها لها في العاصمة "بغداد" في ذكْرى أحد أعْياد الثورة. وقال أحد المُرافقين لي ـ وكان من كوادر حزْب البعْث ـ أنّ راكبها هوّ من عائلة قائد الحرس الثوري العراقي. يـــااااه ما أشْبه اليوم بالبارحة... تحوّلتُ من مواطن عراقيّ حرّ، إلى مواطن اِحْتلّوا أرضه، ومنها إلى مواطن يدخل أراضي الدولة التي احْتلّت وطنه، ولماذا ؟ بدعْوى الاِنْتقام...
لا تهمّ الوسيلة والطريقة والطرق... المهمّ النتائج والغايات.
أفهم دواعي "أمير التوم" و "ميلود عبْد القادر" وبقيّة الإخوان الذين يعْتنقون إيديولوجية تنْظيم القاعدة، لكنني لا أتبنّاها وإنما أنضوي تحْتها، طالما أنّ أهدافها تصبّ في ما أسْعى إلى تحْقيقه.
ما زالتْ عيناي تمْسح ناطحات السحاب والشرفات والسيارات الفارهة والنساء العاريات والشوارع الزاخرة بالحركة والنظام.
لمْ أجدْ ما به أشبّه أيّ معْلم من هذه المعالم، مع نظير في العراق وسوريا، وحتّى "باريس " التي مكثتُ فيها أسْبوعيْن لمْ ترْتقِ شوارعها ونظامها إلى مسْتوى العاصمة الأمريكيّة.

أنخْتُ حقيبتي على الأرْض، وبقيتُ واقفا أحمْلق في المارّة والسيارات... أشْعلْتُ سيجارة لمْ يكن مسْموحا لي أنْ أشْعلها داخل المطار.
حين نفثتُ دخانها بعْد النّفس الأوّل، اِقْترب منّي أحدهم ولمْ تكن ملامحه شرْقيّة.. مع ذلك كلّمني بلغة عربيّة أشْبه باللهْجة المصْريّة:
- السلام عليْكم.
- (بانْتباه وحَذَر) وعليكم السلام.
- أبو مصعب... أليس كذلك ؟
- (حَـمْلقْتُ فيه وكدْتُ أنْ أنكر اسمي الذي لم يكتب على جواز السفر)
نعم... أنا... هل ؟ من أنتَ ؟ هلْ ؟
- (ابتسمَ)
اِنحنى على الحقيبة يرْفعها، وكدْتُ أمْنعه. غيْر أنه أردف ابْتسامته بكلمة السرّ المُتّفَق عليْها، قائلا:
- التمثال... التمثال، أليس كذلك؟
حينها ابْتسمْتُ بغبْطة حاولْتُ إخفاءها، وارْتميْتُ عليْه لأحْضنه بفرْحة مَنْ مدّوا له حبْلا، وهْو داخل هوّة عميقة.
وسألْته:
- الإخوان بخيْر؟
ارْتَبَكَ، وهْو يُفتّش ببصره عمّنْ يُمْكن أنْ يكون يُراقبنا. ووضَع يَدَه على فمي، مُحاولا إخماد صوتي، وقال:
- لا تتكلّم مُطلقا... عليْنا بمُغادرة المكان.

عبرْنا الشارع إلى الضفّة الأخْرى، حيْثُ ترْبض سيارة خفيفة، سارتْ بنا إلى مكان في حيّ صغير خارج أحواز العاصمة.
المنزل على صغر مساحته، أجمل بكثير من واجهته الخارجيّة.
تتوسّطه غرْفة جلوس بأرائكها و إكسسواراتها، كأنّه أُثّثَ لاستقبال عروس. دخلْتُ على الجماعة، فاسْتقبلوني بالأحضان. فيما لاحظْتُ بعض القوارير والأكياس مُبعْثرة عل زرْبيّة تتوسّط قاعة الجلوس... فهمْتُ أنّها المُخصّصة لتنْفيذ الخطّة.

كان "ميلود عبْد القادر" و "أمير التوم" يُعالجان تلْك المواد والقوارير، بهدوء لا مثيل له. فيما كان ثلاثة شبّان لمْ أتعرّفْهم، يُتابعون المُشاهدة و المساعدة.
حين انضممت إلى الإخوان، قدّمني "أمير التوم" لهم، بعْد أن اِنْتبه لملامحي قائلا، مُقدّما لي الجماعة:
- هذا الأخ "أبو بكّر الشوكاني" من السّعوديّة... و هذا الأخ "سمير خطّاب" من مصر... و هذا الأخ "صالح العريض" من تونس... وكلّهم شباب جاؤوا لنصْرة الإسلام والاِنتقام من الكفرة.
قلتُ دون أنْ أحدّد مشاعري:
- الحمد لله.

فهمْتُ بعْدها في الجلسات المُتتالية، أنّ الإخوة الثلاثة وأنا رابعهم، سنتولّى تنْفيذ العمليّة، ضدّ تمْثال الحريّة الرّابض على أنْفاس البشريّة منذ قرون.
هذا الحجر البارد منه وعبْره، تمرّ الوصاية والاحتلال وقمْع الشعوب وإسْقاط الحكومات ...ودائما تحت يافطة الحريّة وحقوق الإنسان. فيما لم تشْفع للإنسانيّة دساتيرها الوضْعيّة والسماويّة والتشْريعات الحقوقيّة، كي تُحقّق أمْنها وسلْمها.
لا بدّ ـ إذن ـ من ضرْب كلّ رموز الطغْيان والفجور والقمْع... التي أقْنعونا أنها تمثّل قيَما ما. تماما ككلّ التماثيل المُنْتصبة في شوارع العالم قاطبة، وشوارع الدول العربيّة التي تُكرّس حُكم الفرْد وتأليه الحاكم. حتّى يأتي آخر فيقْلع ما سبق، ويغْرس تماثيل أخرى.
كان تمثال الحرية "الإله الأكبر" أو ربّ الآلهة جميعا. وأنّ التماثيل الأخرى المنتصبة في ساحات عواصمنا ليْست إلا آلهة صغيرة تأتمر بأوامر الإله الأكبر.
و رأيت فيما يرى النائم أنّ الإله الأكبر كلما أسدل الليل ستاره على العواصم ينفض تكلّسه، وينزل من منصّته تلك في اتجاه العواصم العربيّة ليتفقّد الآلهة الصغيرة التي تبقى ثابتة دون حراك. فيهدّدها ويأمرها ويلقّنها بالسوط حينا وبالصراخ و بالوشوشات وبالركل وبالصفع... وأنه الرحيم و العظيم و القادر والنافع والضّار... وبرحمته يُطبطب على خدّ هذا الإله الصغير أو يربّت على كتف ذاك أو يمسح على شعر الآخر... و هكذا إلى أن يكمل جولته في كلّ العواصم، ليعود إلى منصّته الرخاميّة الباردة مطمئنا لتطبيق الآلهة الصغيرة أناجيله و صحفه.
الليلة الفاصلة بين 31 ديسمبر و 01 جانفي، هيّ الليلة الحاسمة ... ليلة التنْفيذ... ليْلة الشهادة... ليلة الانتقام... لي وللإخوان ولزوجتي وعائلتي وأمّتي و شعوب العالم الإسلامي قاطبة.
مُنْتصف النهار تماما، كانوا يجْلسون جميعا في قاعة الجلوس يتلقّون آخر التعْليمات.
مـرّر "أمير التوم" أصابعه على لحيته الكثيفة التي جعلتْ "أبا مصعب العراقي" يَسْتغْرب من السماح له بدخول التراب الأمريكيّ، وهي تُوشّي وجهه النحيف... قال:
ـ بسم الله الرحمان الرحيم... سنُنفّذ على بركة الله شرْع الله. وقدْ نذر الإخوان "أبو بكر" و "سمير" و "صالح" أنْفسهم للشهادة.
(مُشيرا إلى أحزمة ناسفة، مُلقاة على الزربيّة المفروشة تحت أقدامنا)
هذه هيّ أدواتكم... حافظوا على هدوئكم ولا ترْتبكوا واذْكروا الله كثيرا. أذكّركم أنّ من يُخطئ أوّل مرّة، يكون قدْ أخْطأ للمرّة الأخيرة.
(وجّه كلامه "لأبي مصعب")
أمّا أنتَ، فسيكون سلاحكَ السيارة المُفخّخة... ما عليْكَ إلا أنْ توقفها في ساحة التمْثال على بُعْد عشرة أمتار وتنْزل منها قبل الوقْت المحدّد بثلاث دقائق... ثلاث دقائق كافية بأنْ تكون بعيدا عنْ مكان الانفجار.
سأل "أبو مصعب" مسْتفْسرا:
ـ وما هوّ الوقْت المُحدّد ؟
ـ التنْفيذ سيكون منتصف الليل تماما... وما عليْك إلا مُغادرة السيّارة قبْل ذلك بثلاث دقائق.
مع ذلك أقول، ستكون السيارة رابضة على بُعْد ألف متر من الهدف... قبل عشْر دقائق تتحرّك بالسيارة إلى المكان. توقف مُحرّكها، وتنْزل بهدوء تام كأنّ شيئا لم يكن.
(موجّها كلامه للجميع)

لا تخافوا، كلّ الأمور مدْروسة بدقّة، حتّى السيارة التي سنُنفّذ بها العمليّة، هيّ عبارة عن تاكسي، لا تلْفتُ الانتباه.
أكمل "أمير التوم" حديثه، ثمّ أسْندَ ظهْره إلى الأريكة بقلق أخفاه عن الحضور، قائلا :
ـ من له ملاحظة أو سؤال ؟
علّق "ميلود عبْد القادر":
ـ لا بدّ من التأكيد أنّ التنْفيذ بعون الله، يكون في نفْس التوقيت... "أبو مصعب" تحت التمثال. و الإخوان "أبو بكر" و " سمير" و "صالح" في الساحة العامة حيْثُ تُقام الاحتفالات بمولد المسيح.
(مُتداركا)
نسيتُ أنْ أقول أنّ الأخ "سليمان" الذي اسْتقْبلكم في المطار، هوّ الذي سينْقلكم تباعا إلى الأهداف المُحدّدة.
(سحب حقيبة يدويّة وتناول منها أربع ساعات يدويّة، وزّعها على "أبي مصعب" و "أبي بكر" و "سمير" و"صالح" وعلّق)
دقّقوا التوقيت جيّدا... ضبّطوا عقارب ساعاتكم على نفس الدقائق. نسبة الخطأ لا يُمكن أنْ تتجاوز الثانيتين.

ثبّت الإخوان ساعاتهم في معاصمهم ووقفوا مسْتعدّين. فيما تدخّل "أمير التوم":
ـ نرْجو من الله العزيز القدير أنِ يُثبّت خُطاكم ويحْميكم ويتقبّل أعمالكم. والآن اسْتريحوا لمدّة ساعتيْن، قبْل أنْ نُسجّل رسائلكم إلى أمّة الإسلام، لنُوزّعها بعد أنْ ينْصركم الله.
دخل أرْبعتهم لينـاموا، أو ربّما ليتهيؤوا للحظة الحسْم.
فيما تفرّغ بعضهم لتلاوة القرآن.
ساعة واحدة، كانت كافية ليخْلد الجمْع للنوم. فيما لا يزال الشيخان في قاعة الجلوس يوزّعان الكلام ويدْرسان الخطط اللاحقة. ليْس مهمّا الهدف، بقدْر ما تهمّ النتيجة الصّاعقة على نفوس الكفرة و الأعداء و الشياطين وعلى عقولهم...
إذن، هل يكون الهدف القادم "باريس"؟ أم "لندن"؟ مدريد؟ برلين؟ أم ربّما إحدى العواصم العربيّة ؟ من يدْري، فالأحداث القادمة ستُحدّد الهدف القادم.
مع أنّ " أمير التوم " يفضّل الأنظمة العربيّة وعواصمها. فهي الأقْرب والأخطر من جيوش تغْزو شعوبا من الخارج. فالغزْو قابع فينا، كذا القمْع والإرهاب وإفقار الشعوب والخروج عن الملّة والدين.
ما زالا يتجادلان بمرْجعيات الشيخ "أسامة بن لادن" وأحداث العراق وفلسطين وأفغانسْتان ...كأنهما من سيُغيّر الخارطة والحكومات والأنظمة.

فجْأة، طُرِق البابُ ثلاثا... طرقات خفيفة متتالية.
ردّ "ميلود" دون أنْ تظْهر عليْه علامات الارتباك والرّيبة. فهْي طرقات "سليمان":
ـ من...؟
ـ التمثال.
ـ لحظة... سأفْتح.

اتجه "ميلود" نحو الباب ليفْتحه... مدّ يده للقفْل أداره وسحب الباب، فاصْطدمتْ زاوية رؤيته "بسليمان" مُحاطا بعناصر ملثمة، من القوات الخاصة الأمريكيّة، مُدجّجة بأسْلحة آليّة كافية لدكّ الآلاف في لحْظة واحدة... ارتموا إلى الداخل مُسْرعين، وتولّتْ فرْقة منهم شلّ حركة "أمير التوم" و "ميلود عبْد القادر".

لم تمض ثوانٍ قليلة، حتّى أخرجوا "أبا بكر الشوكاني" و "سمير خطاب" و"صالح العريض"، مُثْقلين بالقيود وقادوهم جميعا إلى جهة غيْر معْلومة.

المشهد الأخير

الرسالة الأخيرة

ليْلة السنة الإداريّة الجديدة، كنتُ ممدّدا على سريري مثبتا بَصَري على الشاشة الصغيرة، ومُثبّتا سبّابتي على جهاز التحكّم مُغيّرا وجْهة المُشاهَدَة من قناة إلى أخرى، أتابع اِحْتفالات الشعوب بأعْيادها. واحْتفالات شعوبنا بأعْياد الآخرين.
كان البَذَخُ والفوضى والمُجون والطرب و .. سيّد الأشْياء ليْلتها.
الصّور تنْقلكَ من "باريس" إلى "لنْدن" إلى "بون" إلى "روما" إلى "أثينا" إلى ... وقنوات إخباريّة تنْقلكَ إلى "غزّة" أو "بغداد" أو "الأعْظميّة"... حيْث الموتى و الإنفجارات والاغتيالات والرصاص... الموت هنا سيّد الأشياء.
أحدهم يبْني حياته بالفرح، وآخر بالحزْن والموت يؤسس لحياة قادمة... أيّ مُفارقة ؟؟؟
فجْأة، نقلتْ إحدى القنوات الإخباريّة خبَرَ الكشْف عنْ مجموعة لتنظيم القاعدة، حاولتْ أنْ تُنفّذ عملا إرهابيّا داخل الأراضي الأمريكيّة. ومرّرتْ نفْس القناة تمثال الحريّة وهو شامخ مبْتسم ساخر، كأنّ على رأسه الطيْر... أقدامه هناك، ويده الممْدودة إلى أعلى تطال سماءنا.
لحظتها فقط، حضرتْ رسالة "إيراد الحاج"، فسحبْتها من كوم أوراقي لأقرأها من جديد:
"بسم الله الرحمان الرحيم
لنْ أقول رفيقي هذه المرّة... أقول أخي في الإسلام. مُتمنّيا من الله سبحانه وتعالى، أنْ يهْديكَ إلى طريقه المسْتقيم / إلى الإسلام.
و بعْد: بعوْن الله وبفضله نوشك أنْ نُحقّق شرْع الله في أرضه. ستسْمع قريبا ما يُحقّقه الإسلام على أرْض العدوّ.
أنا لم أستطع مبارحة سوريا لأحج مع الإخوان إلى نيويورك، ولكنهم حتما بعون الله سيحققون ما يحلم به و يبغيه كل مسلم.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

توقّفْتُ عند "أخي في الإسلام" و "نحقّق شرْع الله في أرْضه" و "أرْض العدوّ"....
أيكون هذا الخبر هوّ ما حكتْه الرسالة؟
ارتبكت مُخيّلتي، وتماهى تفْكيري مع الفوضى والارتباك... لم يعدْ بإمكاني أنْ أفكّر في شيء عدا اللامُفكّر فيه.
إذن، ماذا تبقّى ؟
سحبت سيجارتي أشعلها، وتركتُ عود الثقاب يتّقد كأنه النار المثبتة في المشعل أعلى تمثال الحرية... كانت النار براقة وحادة في حمرتها وغضبها.
مددت الرسالة بيدي الأخرى، وتركتها تسْتمتع بلهيب الغضب، حتى سقطت رمادا على الأرض. كدت أرى تماثيل عديدة تسْقط، فيما لا يزال تمثال الحرية ينتصب ساخرا، شاهرا مشعله كمدفع في وجوهنا.

قصور الساف

ربيع 2010

صدر للكاتب:

* "عودة الشعراء " (مسرحية) ـ دار الإتحاف للنشر/ سليانة ـ أفريل 2002
* " ذاكرة الألوان " (رواية) ـ دار سيبويه للنشر/ المنستير ـ 2006
*عاطل عن العشق (مجموعة شعرية) دار إنانا للنشر ـ ديسمبر 2010
* وصية الوردة (ديوان شعري CD) ـ الشركة التونسية للف والطباعة ـ سبتمبر 2010.
صوتي
* الهدم بالأصابع (شعر) ـ دار البراق للنشر والتوزيع ـ تونس 2013